المستشرقون والسيرة النبوية

بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر

مونتغموري وات

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
ملاحظات اساسية
تطور الموقف (الغربي) من السيرة
(محمد في مكة)
١- النزعة الشكية والافتراض والنفي الكيفي
٢- اسقاط الرؤية المعاصرة على السيرة
الخاتمة
اهم المصادر والمراجع

ملاحظات اساسية

- ١ -

يجب ان نلاحظ في البداية ان المسلم مهما كانت درجة ثقافته يتعامل مع معطيات السيرة وفق ما يمكن اعتباره شبكة من البدهيات والمسلمات. وهي لم تأت اليه مباشرة عن طريق الاخبار والروايات التاريخية التي قد يكون بعضها ضعيفا وبعضها الآخر مشكوكا فيه. بل ان بعض المسلمين لم يقرأ في حياته كتابا تاريخيا واحدا عن محمد (عليه الصلاة والسلام). انما جاءته بطرق اكثر حيوية كانت اشبه بالروافد المتدفقة التي تتشكل لكي تصير نهرا ، من خلال تعامله مع القرآن والحديث ومن خلال تجربته الايمانية التي تحتم عليه ان يكون على معرفة طيبة بسيرة رسوله صلى الله عليه وسلم. من خلال عرف اجتماعي – ثقافي عام – يقوم على خطوط عريضة وتفاصيل متفق عليها تماما بصدد احداث السيرة. من خلال تقليد زمني تتناقل بواسطته حقائق السيرة من جيل مسلم إلى آخر. من خلال تعاطف وتقدير دينيّين ازاء كل ما يتعلق بحياة الرسول عليه الصلاة والسلام. وبالنسبة للمثقف الاكثر تخصصا فان توغله في الحقائق التاريخية للسيرة يضيف رافدا آخر ولا شك إلى هذه الروافد جميعا.

ولكن هذه الروافد كافة ما تلبث ان تتجمع لكي تجعل موقف المسلم من سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) واحداً أياً كان موقع هذا المسلم اللهم الا في حالات استثنائية تقتصر على الخارجين على الاسلام بهذه الدرجة أو تلك ، وعلى بعض الدارسين الذين تلقوا تأثيرات مضادة عن مصادر غير اسلامية.

إن هذا الموقف المتوحد من السيرة الذي تتغلغل في نسيجه مشاعر الاحترام والتقدير والاعجاب والمحبة واليقين. والذي يجد في السيرة تعبيرا متكاملا عن العقيدة التي ينتمي اليها يجد في الدراسات الاستشراقية (الخارجية) عن السيرة تغربا عن مسلماته وخروجا صريحا عن بداهاته وما يمكن اعتباره محاولات متعددة لاصابة هذه المسلمات والبداهات بالجروح والكسور. وهي لن تفعل فعلها في يقينه الا في حالات معينة بينما نجدها تدفعه في اغلب الحالات واعمها إلى الاشمئزاز والنفور.

هذا مع ان معالجة واقعة تمتد جذورها إلى عالم الغيب وترتبط اسبابها بالسماء ويكون فيها (الوحي) همزة وصل مباشرة بين الله (سبحانه وتعالى) ورسوله الكريم ويتربى في ظلالها المنتمون على عين الله ورسوله ليكونوا تعبيرا حيا عن ايمانهم وقدوة حسنة للقادمين من بعدهم. واقعة كهذه لا يمكن بحال ان تعامل كما تعامل الجزيئات والذرات والعناصر في مختبر للكيمياء. أو كما تعامل الخطوط والزوايا في المساحات على تصاميم المهندسين بل ولا كما تعامل الوقائع التاريخية التي لا ترتبط باي بعد ديني أصيل.

اننا هنا بمواجهة تجربة من نوع خاص وشبكة من العوامل والمؤثرات تند عن حدود مملكة العقل وتستعصي على التحليل المنطقي الاعتيادي المألوف ومن ثم فان محاولة قسرها على الخضوع لمقولات العقل الصرف ومعطيات المنطق المتوارثة لا يقود إلى نتائج خاطئة حينا ولا تستعصي عليه بعض الظواهر حينا اخر فحسب بل انه يقوم بما يمكن اعتباره جريمة قتل بشكل من الاشكال اومحاولة تفحّص الجسد البشري كما لو كان في حالة سكون مطلق بعيدا عن تأثيرات الروح وتعقيدات الحياة.

ان الدين والغيب والروح، لهي عصب السيرة وسداها ولحمتها. وليس بمقدور الحس أو العقل ان يدلي بكلمته فيها الا بمقدار. وتبقى المساحات الاكثر عمقا وامتداداً بعيدة عن حدود عمل الحواس وتحليلات العقل والمنطق.

إننا ونحن نناقش هذا المستشرق أو ذاك في حقل السيرة النبوية يجب ان ننتبه إلى هاتين النقطتين مهما كان المستشرق ملتزما بقواعد البحث التاريخي واصوله.

إنه من خلال رؤيته الخارجية وتغربه يمارس نوعا من التكسير والتجريح في كيان السيرة ونسيجها فيصدم الحس الديني ويرتطم بالبداهات الثابتة. وهو من خلال منظوريه العقلي والوضعي يسعى إلى فصل الروح عن جسد السيرة ويعاملها كما لو كانت حقلا ماديا للتجارب والاستنتاجات واثبات القدرة على الجدل.

وهو في كلتا الحالتين لن يخدم الموقف الاسلامي الجاد من سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم). أو يحتل موقفا جادا منها بوجه من الوجوه.

– ٢ –

لنحاول ان نقرب المسألة اكثر. ان العمل المعماري الكبير اذا اقيم على اسس خاطئة فانه سيفقد شرطين من شروطه الاساسية : التأثير الجمالي الذي يمكنه من اداء وظيفته الوجدانية ، والمقومات العلمية التي تمكنه ان اداء وظيفته الحيوية.

إن البحث في (السيرة) بوجه خاص ليستلزم اكثر من اية مسألة اخرى في التاريخ البشري هذين الشرطين اللذين يمكن ان يوفرهما منهج متماسك سليم يقوم على اسس علمية موضوعية لا يخضع لتحزب أو ميل أو هوى. ويمتلك عناصر جماليته الخاصة التي تليق بمكانة الرسول المتفردة ودوره الخطير في اعادة صياغة العالم بما يرد اليه الوفاق المفقود مع نواميس الكون والحياة.

وقد كانت مناهج البحث الغربي (الاستشراقي) في السيرة تفتقر إلى أحد هذين الشرطين أو كليهما. وكانت النتيجة ابحاثا تحمل اسم السيرة وتتحدث عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتحلّل حقائق الرسالة ولكنها – يقينا – تحمل وجها وملامح وقسمات مستمدة من عجينة اخرى غير مادة السيرة وروح اخرى غير روح النبوة. ومواصفات اخرى غير مواصفات الرسالة.

إن نتائجها تنحرف عن العلم لانها تصدر عن الهوى وتفقد القدرة على مسامتة عصر الرسالة وشخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) ونقل تأثيراتهما الجمالية بالمستوى العالي نفسه من التحقق التاريخي. لانها تسعى لأن تخضع حقائق السيرة لمقاييس عصر تنسخ كل ما هو جميل وتزيف كل ما هو اصيل وتميل بالقيم المشعة إلى ان تفقد اشعاعها وترتمي في الظلمة أو تؤول إلى البشاعة !!

***

– ٣ –

يجب ان نلاحظ ان الفهم الجاد للسيرة يقتضي منهجا يقوم على طبقات أو ادوار أو شروط ثلاثة وان افتقاد أو تهديم أي واحد منها يلحق ضررا فادحا في مهمة الفهم هذه.

فأما الطبقة الاولى الاساسية فهي الايمان ، أو على الاقل احترام المصدر الغيبي لرسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) وحقيقة (الوحي) الذي تقوم عليه.

وأما الطبقة الثانية فهي اعتماد موقف موضوعي بغير حكم مسبق يتجاوز كل الاسقاطات التي من شأنها ان تعطل عملية الفهم.

وأما الطبقة الثالثة فهي (تقنية) صرفة تقوم على ضرورة الاحاطة الجيدة بادوات البحث التاريخي : بدءً باللغة وجمع المادة الاولية وانتهاء بطرائق المقارنة والموازنة والنقد والتركيب. إلى آخره.

واذا كان الغربيون قد بلغوا حد التمكن والابداع في هذه الدائرة الاخيرة فانهم في نهاية الامر لم يستطيعوا ان يقدموا اعمالا علمية بمعنى الكلمة لواقعة السيرة ولا قدروا حتى على الاقتراب من حافة الفهم ، بسبب انهم كان يعوزهم التعامل الاكثر علمية مع الدائرتين الاوليين : احترام المصدر الغيبي واعتماد الموقف الموضوعي.

بصدد النقطة الاولى فانه يصعب علينا ان نطلب من الغربيين النصارى والماديين وبخاصة الاخيرين منهم التحقق بايمان كهذا. بل انه امر يكاد يكون مستحيلا. ولكن من ناحية علمية بالمفهوم الشامل للعلم ، فانه لابد من هذا التحقق اذا اريد ادراك واقعة السيرة ومتابعة حبكة نسيجها ذي الخلفية الغيبية باعتباره حركة دين سماوي قادم من (فوق) وليس تجربة بشرية متخلّقة في تراب الارض.

أما بصدد الدائرة الثانية فان مما يؤخذ على الباحث الغربي تجاوزه (الموضوعية) في مناهج تعامله مع السيرة. فلو انه حاول التزامها وحرر عقله من عوامل الشد الزمنية والمكانية والمذهبية والنفسية ولو انه قدر على تجاوز النسبيات وضغوط الاسقاطات المرحلية ، فانه كان سيتمكن من تقديم اعمال انضج بكثير واقرب إلى روح الواقعة وتركيبها ، وايقاعها.

إن منهج البحث في السيرة للمؤرخ الغربي أو المستشرق يمثل بحد ذاته جدارا يصده عن الفهم الحقيقي لوقائع السيرة ونسيجها العام.

***

– ٤ –

ان مناقشة أي من المستشرقين الذين تناولوا السيرة على مستوى التفاصيل والجزئيات التاريخية والعقدية لا تغني شيئا لانها ستكون بمثابة نقد موقوت يتحرك على السطح ويستهلك نفسه في الجزئيات دون ان يبحث عن الجذور العميقة التي تظل تنبت الشوك والحسك.

والجذور العميقة هي المنهج الخاطئ الذي تقوم عليه ابحاث هؤلاء المستشرقين فاذا استطعنا ان نضع ايدينا على عيوب المنهج وشروخه استطعنا معرفة المنبع الذي يتمخض عنه تيار الاخطاء الموضوعية وخلخلة الاسس التي آتت هذه الثمار المرة واقتلاعها. لكي تنظف الارضية ويمهّد الطريق. ويحين اليوم الذي تعالج فيه السيرة وفق منهج عدل يعرف كيف يتعامل مع سيرة نبي ليست كالسير يقينا.

***

– ٥ –

هنالك ملاحظة جديرة بالالتفات بالرغم انها على قدر كبير جدا من الوضوح لكن الوضح الشديد قد يؤدي إلى الخفاء كما يقول المثل المعروف.

إن بحث المستشرقين – بصفة عامة – في السيرة لا يحمل عناصر اكتماله منذ البداية بل انه ليشبه الاستحالة الحسابية المعروفة بجمع خمس برتقالات – مثلا – مع ثلاثة أقلام. إذ لا يمكن ان يكون الحاصل ثمانية. ان هنالك خلافا نوعيا لا يمكن الارقام من ان تتجمع لكي تشكل مقداراً موحدا.

إن المستشرقين – بعامة – يريدون ان يدرسوا سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفق حالتين تجعلان من المستحيل تحقيق فهم صحيح لنسيج السيرة ونتائجها واهدافها التي تحركت صوبها والغاية الاساسية التي تمحورت حولها.

فالمستشرق بين ان يكون علمانياً مادياً لا يؤمن بالغيب وبين ان يكون يهوديا أو نصرانيا لا يؤمن بصدق الرسالة التي اعقبت النصرانية.

واذ كانت السيرة في تفاصيلها وجزئياتها تنفيذا تاريخيا لعقيدة الاسلام ذات المرتكزات الغيبية بل ذات التداخل بين المغيب والمنظور في السدى واللحمة واذ كانت بمثابة دعوة سماوية اخيرة جاءت لكي توقف النصرانية المحرفة عن العمل وتحل محلها بما تتضمنه من عناصر الديمومة والحركية والاكتمال. فان ثمة جدارا فاصلا يقف بين المستشرقين – سواء اكان من الصنف الاول – ام من الصنف الثاني – وبين فهم السيرة.

ومهما عمل المستشرق قدراته العقلية ومهما اجتهد في تحليلاته المنطقية ومهما استنفر امكاناته التقنية وحاول الافادة مما يسمى بالعلوم المساعدة أو الموصلة للحقيقة التاريخية ومهما ادعى من حياد وموضوعية فانه غير واصل البتة إلى تقديم صيغة اقرب إلى الكمال لسيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ولن يكون غريبا أو يعد تجاوزا على الواقع القول ان اعمال المستشرقين في السيرة على تألق بعضها وعمقه وغنائه لا يمكن ان ترقى بحال إلى المصاف الاول من الابحاث الجادة ولا يمكن إلاّ ان تظل في الخط الثاني أو الثالث وربما العاشر اذا وجد الستشرق نفسه ينساق بفجاجة وراء تعصبه النصراني كما فعل لامانس أو وراء تصوره المادي للكون والعالم والحياة كما فعل بندلي جوزي. انها لا تغدو أبحاثاً حين ذاك ولكن عبثا بمقدساتنا باسم العلم وتحويلا للسيرة لكي تكون حقلا لتجارب العقل النقدي الغربي[1] ونحن يجب ان نرفض التعامل مع هذا العبث وان نرفض حتى النظر فيه.

انه يجب ان نضع هذه الحقيقة في الحسبان كي لا نسبح في بحر الجزئيات المتلاطمة دون ان نعرف الحدود النهائية، والملامح الاساسية، والصورة الشاملة (لوضع البحث الاستشراقي) ازاء سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم). ولن يرضى مسلم جاد ان يبقي عقيدته مفتوحة لدخول الريح الصفراء.

***

(١) أنظر على سبيل المثال : مونتغومري وات : محمد في مكة ، الصفحات ١٦٦-١٧٨ ، ١٨٣-١٨٩ ، ٢٣٣-٢٣٥.

بما ان وقائع السيرة هي بمثابة التشكل التاريخي والواقعي لعقيدة الاسلام : قرآنا وسنة ورصيدا تشريعيا وبما أنها البيئة الزمنية والمكانية لفعالية محمد (صلى الله عليه وسلم) النبي المبعوث عن الله (سبحانه وتعالى) للعالم جميعاً فانه يصعب من الوجهة الاسلامية اعتبارها مسألة تاريخية صرفة تخضع لاساليب النقد والتحليل التي تعامل بها مراحل التاريخ المختلفة والمناهج البشرية النسبية التي تحاول ان تجعل الواقعة التاريخية مسألة مختبرية او معملا للتشريح ..

إن السيرة اذا اعتبرت كذلك قاد هذا الاعتبار إلى خطأين اساسيين : اما اولهما فهو استحالة فهمها ما دام انها اكبر من المناهج النسبية واكثر شمولا وما دامت تستعصي على اساليب النقد والتحليل المحدودة القاصرة.

وأما ثانيهما فهو فتح الطريق امام خصوم الاسلام لتدمير الثقة بمنطلقاته الاساسية واي منطلق بعد القرآن الكريم اكثر ثقلاً واكبر اهمية من السيرة : بيئة التخلق الاسلامي على كل المستويات وتشكله واكتماله ؟

لذا فانه – من الناحية المبدئية – يجب على المثقف المسلم رفض القبول النهائي لنتائج بحوث المستشرقين في حقل السيرة. لانها مهما تكن على درجة من الحيادية والنزاهة فانها لابد وان تسقط الخطأين آنفي الذكر : القصور عن الفهم وتدمير الثقة باسس هذا الدين.

ولكن ما دام ان بحوث المستشرقين امر واقع وهي تغطي مساحات في السيرة واسعة في مجال البحث التاريخي وتفرض ثقلها في الدوائر الاكاديمية التخصصية بعامة وما دام ان في بعض هذه البحوث لمحات منهجية وموضوعية قد تمنحنا المزيد من الادراك لنسيج السيرة وتعطينا المزيد من الادوات المعينة على الفهم فلا بأس ان نتعامل معها على هذا الاساس وليس ابدا على اعتبار انها صيغة مقبولة في التعامل الدراسي مع سيرة رسولنا (عليه الصلاة والسلام).

ومن اجل الا يختلط الاسود بالابيض وتمرر على العقل المسلم معطيات المستشرقين المنحرفة واخطاؤهم المكشوفة أو المستترة كان لابد من تقديم العديد من الدراسات النقدية لهذه المعطيات تكون بمثابة مصدر انارة للمسلم في هذا الدرب المعتم الطويل.

إن (مونتغمري وات) يحاول ما وسعه الجهد ان يكون الباحث (الجديد) الذي يتجاوز اخطاء اسلافه ومعاصريه ، بل انه ليخطو خطوة اخرى ، لم يسبقه بها احد من اقرانه، فيسعى إلى التحقق بقدر من الاحترام والحيادية ازاء الجذور الغيبية لحقائق السيرة ووقائعها يقول في مقدمة كتابه (محمد في مكة) " فيما يتعلق بالمسائل الفقهية التي اثيرت بين المسيحية والاسلام فقد جهدت في اتخاذ موقف محايد منها وهكذا بصدد معرفة ما اذا كان القرآن الكريم كلام الله أو ليس كلامه امتنعت عن استعمال تعبير مثل (قال تعالى) أو (قال محمد) في كل مرة استشهد فيها بالقرآن ، بل اقول بكل بساطة (يقول القرآن) ... واقول لقرائي المسلمين شيئا مماثلاً ، فقد الزمت نفسي برغم اخلاصي لمعطيات العلم التاريخي المكرس في الغرب ان لا اقول أي شيء يمكن ان يتعارض مع معتقدات الاسلام الاساسية "[٢].

ويعلق المستشرق البريطاني المعروف (سير هاملتون جب) على الكتاب قائلاً: بانه يجعل القاريء يشعر بانه كتبه رجل عاش بالخيال تجربة محمد في مكة اكثر من أي كاتب سابق يضاف إلى ذلك تنظيمه الدقيق لمواد البحث الذي يعد إضافة جديدة قيمة لدراسة اصول الاسلام لقد اهتم الكتاب خاصة – يقول جب – بالارضية الاقتصادية والاجتماعية وعلاقاتها بنظريات القرآن الدينية ولهذا يؤمل ان يؤدي إلى تقدير حق لهذا القائد العظيم اكثر في الغرب مما مضى[٣]!! من اجل هذا وقع الاختيار عليه لأن الآخرين من المستشرقين الذين افتقدوا بعض شروط البحث الجاد قد نوقشوا كثيرا فضلا عن ان بحوثهم لم تعد تستحق ذلك العناء الكبير الذي عوملت به في العقود السابقة بسبب وضوح تناقضاتها والحاحها في ملاحقة ما تتصوره اخطاء والتشبث بها كالمغناطيس الذي يمسك بقطع الحديد المتناثرة ..

ثم ان (الدفاع) عن الحقائق الاسلامية العقيدية والتاريخية ازاء اخطاء الآخرين وتحريفاتهم ليس اكثر اهمية من تقديم اعمال بنائية وانه ليجب التأكيد باستمرار على حقيقة ان العمل التاريخي الجاد بحاجة إلى البناة الذين يملكون الحس النقدي بطبيعة الحال اكثر من

---

(٢) المرجع السابق ، ص ٥-٦.

(٣) من تعليق جب الذي اعتمده الناشر على غلاف كتاب (محمد في مكة).

النقاد ذلك ان جوانب كثيرة من تاريخنا وحضارتنا لا تزال تنتظر من يكشف النقاب عنها أو يعيد عرضها بالاسلوب الذي يقدمها كما تحققت فعلاً اما ملاحقة دراسات الاخرين كشفا عن خطأ فيها ودفاعا عن قيمة ما في تاريخنا وفكرنا وعقيدتنا فيبدو امرا ثانويا يجب الا يحتل الخط الامامي الا بعد ان يتم القدر الاكبر من مساحات البناء وتكويناته.

ومع ذلك فان العملية النقدية – ما دامت تتضمن قدرا من الانجاز البنائي في جانب ما من جوانب العقيدة أو التاريخ – تغدو جديرة بالممارسة هي الاخرى شرط ألاّ تكون هدفا بحد ذاتها.

باختصار فان التوجه الاكثر اهمية وجدوى يجب ان يتجاوز الدفاع المتشنج ازاء كل ما طرحه الخصوم حول هذه النقطة ان تلك في مجرى التاريخ والعقيدة الاسلامية صوب ابحاث في تكوين التاريخ والحضارة والعقيدة والشريعة، نظما وصيرورة واعمالا بنائية في هذا الجانب أو ذاك لتقدم بذاتها القناعات الموضوعية التي تتهافت عندها مقولات الخصوم[٤].

ومن ثم واستنادا إلى ذلك كله وقع الاختيار على (وات) في واحد من كتابيه المعروفين عن محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو (محمد في مكة). ولم أشأ ان اتناول الكتابين معا لسببين اولهما ان حجم المادة سيتضاعف ولا شك مما لا يسمح به مجال كهذا الذي اتاحه المجلد الخاص بالمستشرقين وثانيهما اني سأضطر – حينذاك – لوضع القاريء امام حشد كبير من الشواهد والنصوص قد تمثل في جوهرها تكرارا لمعان محددة. فما دام ان المنهج في الكتابين واحد وان الخلل الذي يعانيه هذا المنهج واحد كذلك في الكتابين فان التعامل مع احدهما سيغني بالضرورة عن التعامل مع الآخر.

فهل قدر الرجل على تنفيذ امنيته التي طرحها في مقدمة بحثه ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال يجب ان نقوم بعرض مركز للادوار التي مرت بها الحركة الاستشراقية في سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والملامح الاساسية في مناهجها لكي نعرف على وجه التحديد موقع (مونتغمري وات) على خارطة الاستشراق وبخاصة على مستوى (المنهج).

---

(٤) أنظر كتاب (فصول في المنهج والتحليل) للمؤلف ، فصل (حول تداول السلطة في العصر الراشدي).

تطور الموقف (الغربي) من السيرة

– ١ –

بدأ الموقف (الغربي) من رسول الاسلام (صلى الله عليه وسلم) يتشكل في اطار ديني صرف مترع بالتعصب والتشنج والانفعال مليء بالحقد والغضب والكراهية تحيطه جهالة عمياء متعمدة حينا وغير متعمدة احيانا جعلت بين القوم وبين شخصية رسولنا (عليه الصلاة والسلام) سدا يصعب اختراقه والنتيجة ليست ابحاثا تاريخية علمية أو موضوعية بحال. انما ذلك السيل المنهمر من الشتائم والسباب مارسها رجال دين من قلب الكنيسة النصرانية باتجاهاتها كافة. ومارسها رجال علمانيون لا علاقة لهم بالكنيسة من قريب اوبعيد وقد استمر هذا التيار حتى العصر الراهن.

ماذا كانوا يقولون عن رسولنا عليه الصلاة والسلام وعن رسالته ؟

يصعب على المرء ان يسرد ما قالوه حتى على سبيل الاستشهاد .. ولكن ما دام ان ناقل الكفر ليس بكافر فلا بأس من الاشارة – بايجاز – إلى بعض الشواهد نتلقاها عن اناس حديثي عهد بهذا العصر بل ان بعضهم لا يزال حيا.

يقول المونيسنيور كولي في كتابه (البحث عن الدين الحق) : برز في الشرق عدو جديد هو الاسلام الذي اسس على القوة وقام على اشد انواع التعصب ولقد وضع محمد السيف في ايدي الذين تبعوه وتساهل في اقدس قوانين الاخلاق ثم سمح لاتباعه بالفجور والسلب ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة وبعد قليل اصبحت آسيا الصغرى وافريقيا واسبانيا فريسة له حتى ايطاليا هددها الخطر وتناول الاجتياح نصف فرنسا لقد اصيبت المدنية ولكن انظر !!

ها هي النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سدا في وجه سير الاسلام المتنصر عند بواتيه (٧٥٢م) ثم تعمل الحروب الصيلبية في مدى قرنين تقريبا (١٠٩٩–١٢٥٤م) في

سبيل الدين فتدجج أوربا بالسلاح وتنجي النصرانية وهكذا تقهقرت قوة الهلال امام راية الصليب وانتصر الانجيل على القرآن وعلى ما فيه من قوانين الاخلاق الساذجة[٥].

ويقول المسيو كيمون في كتابه (ميثولوجيا الاسلام) : " ان الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس واخذ يفتك بهم فتكا ذريعا بل هو مرض مروع وشلل عام وجنون ذهني يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك الدماء ويدمن معاقرة الخمور (!!) ويجمح في القبائح. وما قبر محمد في مكة (؟) الا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجؤهم إلى الاتيان بمظاهر الصرع (الهستريا) والذهول العقلي ، وتكرار لفظة (الله الله) إلى ما لا نهاية وتعوّد عادات تنقلب إلى طباع اصيلة ككراهية لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى وترتيب ما يستنبط من افكار القسوة ، والفجور في الملذات "[٦].

ويقول جويليان في كتابه (تاريخ فرنسا) : " ان محمدا مؤسس دين المسلمين قد امر اتباعه ان يخضعوا العالم وان يبدلوا جميع الاديان بدينه هو ما اعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين والنصارى ! ان هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس اسلموا أو موتوا بينما اتباع المسيح اراحوا النفوس ببرهم واحسانهم ماذا كانت حال العالم لو ان العرب انتصروا علينا ؟ اذن لكنا مسلمين كالجزائريين والمراكشيين "[٧].

وجاء في كتاب (تقدم التبشير العالمي) الذي ألفه الدكتور غلوور ونشره في نيويرك سنة (١٩٦٠م) في نهاية الباب الرابع : " ان سيف محمد والقرآن اشد عدو وأكبر معاند للحضارة والحرية والحق ومن بين العوامل الهدامة التي اطلع عليها العالم إلى الآن "[٨] ، وقال " القرآن خليط عجيب من الحقائق والخرافات ومن الشرائع والاساطير كما هو مزيج غريب للاغلاط التاريخية والاوهام الفاسدة وفوق ذلك هو غامض جدا لا يمكن ان يفهمه احد

---

(٥) عن النصوص السابقة ولمزيد من التفاصيل انظر د. محمد البهي : الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٥٠٧-٥٢١ ، ليوبولد فايس (محمد اسد) : الاسلام على مفترق الطرق ، ص ٦٠ فما بعد ، عمر فروخ ومصطفى الخالدي : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، توفيق الحكيم : تحت شمس الفكر ، ص ١٨ فما بعد ، مجلة البلاغ الكويتية ، عدد ٥٨ ، ص ١٢. مجلة البعث الاسلامي الهندية ، عدد ٩ ، السنة الثامنة.

(٦) ينظر الهامش السابق.

(٧) الهامش السابق.

(٨) الهامش السابق.

الا بتفكير خاص له. والذي يعتقده المسلم ان المعبود هو الله الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد فالله ملك جبار متسلط ليست له علاقة مع خلقه ورعاياه برغم ان الاسلام يذكر الرابطة الموجودة بينهما "[٩].

ثم ينتقد غلور شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " كان محمد حاكما مطلقا وكان يعتقد ان من حق الملك على الشعب ان يتبع هواه ويعمل ما يشاء وكان مجبولاً على هذه الفكرة فقد كان عازما على ان يقطع عنق كل من لا يوافقه في هواه اما جيشه العربي فكان يتعطش للتهديد والتغلب وقد ارشدهم رسولهم ان يقتلوا كل من يرفض اتباعهم ويبعد عن طريقهم "[١٠].

ويعتقد سفاري الذي ترجم القرآن سنة (١٧٥٢م) " ان محمدا قد لجأ إلى السلطة الالهية لكي يدفع الناس إلى قبول هذه العقيدة ومن هنا طالب بالايمان به كرسول لله وقد كان هذا اعتقادا مزيفا املته الحاجة العقلية.. "[١١].

وهذا يكفي . لقد جاءت هذه الاقوال افرازا طبيعيا للصراع المحتدم بين الاسلام والصليبية وقد كان للنتائج التي تمخضت عنها الحروب الصليبية طعم مر في حلوق الغربيين ما ذاقوه أبداً. ان ليوبولد فايس " محمد اسد " يتحدث عن التجربة التي استحالت معضلة في مناهجهم يصعب تجاوزها فيقول : " فيما يتعلق بالاسلام فان الاحتقار التقليدي اخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول الى بحوثهم العلمية وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين اوربا والعالم الاسلامي (منذ الحروب الصليبية) غير معقود فوقه بجسر ثم اصبح احتقار الاسلام جزءا اساسيا من التفكير الاوربي والواقع ان المستشرقين الاولين في الاعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الاسلامية وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من

---

(٩) عن النصوص السابقة ، ولمزيد من التفاصيل ، انظر د. محمد البهي : الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٥٠٧-٥٢١ ، ليبولد فايس (محمد اسد) : الاسلام على مفترق الطرق ، ص ٦٠ فما بعد ، عمر فروخ ومصطفى الخالدي : التبشير والاستعمار في البلا العربية ، توفيق الحكيم تحت شمس الفكر ، ص ١٨ فما بعد ، مجلة البلاغ الكويتية ، عدد ٥٨ ، ص ١٢ ، مجلة البعث الاسلامية الهندية ، عدد ٩ ، السنة الثامنة.

(١٠) انظر الهامش السابق.

(١١) انظر الهامش ، رقم ٩.

تعاليم الاسلام وتاريخه مدبرة على اساس يضمن التأثير في موقف الاوربيين من الوثنيين. غير ان هذا الالتواء العقلي قد استمر مع ان علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير. ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها اما تحامل المستشرقين على الاسلام فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية بكل ما لها من ذيول، في عقول الاوربيين "[١٢].

ليست الحروب الصليبية وحدها لكنه الاسلام نفسه ان الخطر الحقيقي كما يقول لورنس براون في كتاب اصدره عام (١٩٤٤م) " كامن في نظامه وفي قدرته على التوسع والاخضاع وفي حيويته انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الاوربي "[١٣].

ونقرأ في مجلة العالم الاسلامي (عدد حزيران سنة ١٩٣٠) " ان شيئا من الخوف يجب ان يسيطر على العالم الغربي ولهذا الخوف اسباب منها ان الاسلام منذ ان ظهر في مكة لم يضعف عدديا بل كان دائما في ازدياد واتساع. ثم ان الاسلام ليس دينا فحسب، بل ان من اركانه الجهاد ولم يتفق قط ان شعبا دخل في الاسلام ثم عاد نصرانيا "[١٤].

والمستشرق الالماني بيكر يقولها بصراحة : " ان هناك عداءً من النصرانية للاسلام بسبب ان الاسلام عندما انتشر في العصور الوسطى اقام سدا منيعا في وجه انتشار النصرانية ثم امتد في البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها "[١٥].

***

– ٢ –

وفي موازاة هذا التيار الكهنوتي المتعصب الذي يفتقد أي قدر من الرغبة في التعرف على حقيقة الاسلام وشخصية النبي (عليه الصلاة والسلام) وفي اعقاب عصر الاصلاح الديني وفيما بعد خلال عصر التنور وانفصال الدين عن الدولة وحتى القرن العشرين توالت على المسرح اجيال من المعنيين بالدراسات الاسلامية عامة وسيرة رسولنا

---

(١٢) أنظر الهامش ، رقم ٩.

(١٣) أنظر الهامش ، رقم ٩.

(١٤) أنظر الهامش ، رقم ٩.

(١٥) أنظر الهامش ، رقم ٩.

(صلى الله عليه وسلم) خاصة وقد عرف هؤلاء بالمستشرقين : كان بعضهم ينتمي إلى الكنيسة ويرتدي ملابس الكهنوت ولكن كان اغلبهم (مدنياً) ولا تربطه بالكنيسة رابطة وظيفية. وكان يتوقع ان تخف حملاتهم على رسولنا (صلى الله عليه وسلم) وان تتغير نظرتهم في تعاملهم مع شخصيته وتاريخه وتعاليمه.

نعم لقد حدث شيء من هذا ولكنه ما تعدى التشذيب والتهذيب وتجاوز كلمات الفحش والسباب اما المنهج فقد ظل هو المنهج : جهلا بتركيب السيرة وتعصبا في التعامل معها وتحليلات واستنتاجات ما انزل الله بها من سلطان يؤكدها الواحد منهم المرة تلو المرة ويجتمع القوم عليها حتى لتكاد تغدو عندهم يقينا من اليقين على الرغم من انها بنيت اساسا على الوهم الذي تستحيل معه رؤية الحقائق بحجمها الطبيعي وعلى الرغم من انها انبثقت عن زاوية رؤية ضيقة مترعة بالتعصب ونظر اليها عبر منظار قد دخن عليه سلفاً ، وعلى الرغم من انها في احسن الاحوال قد بنيت على شواهد تاريخية ولكنها ليست – بحال – الشواهد المتواترة ذات الثقل وانما هي الشاذ الغريب الذي يتشبثون به لكونه يشبع في نفوسهم وعقولهم حاجة.

وعموما فاننا نستطيع ان نضع ايدينا على عدد من الاخطاء والثغرات المنهجية لهذه البحوث الاستشراقية ونشير هنا على وجه التحديد إلى ثلاث من هذه الثغرات :

اولا : المبالغة في الشك والافتراض والنفي الكيفي واعتماد الضعيف الشاذ :

يكاد يكون هذا الملمح الاساسي في مناهج المستشرقين قاسما مشتركا اعظم بينهم جميعا. انهم يمضون مع شكوكهم إلى المدى ويطرحون افتراضات لا رصيد لها من الوقع التاريخي بل انهم ينفون العديد من الروايات لهذا السبب أو ذاك بينما نجدهم يتشبثون – في المقابل – بكل ما هو ضعيف شاذ. " لقد غالوا في كتاباتهم في السيرة النبوية واجهدوا انفسهم في اثارة الشكوك (في وقائعها) وقد اثاروا الشك حتى في اسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولو تمكنوا لاثاروا الشك حتى في وجوده ، ولكنهم مهما قالوا في نسبة التاريخ الصحيح في

سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فان سيرته هي اوضح واطول سيرة نعرفها بين سير جميع الرسل والانبياء "[١٦].

ويشير درمنغهم إلى هذه المسألة فيقول " " من المؤسف حقا ان غالى بعض هؤلاء المتخصصين – من امثال موير ومرغوليوث ونولدكه وشبرنجر ودوزي وكيتاني ومارسين وغريم وغولد زيهر وغود فروا وغيرهم – في النقد احياناً ، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص ولا تزال النتائج التي انتهى اليها المستشرقون سلبية ناقصة ولن تقوم سيرة على النفي ، وليس من مقاصد كتابي ان يقوم على سلسلة من المجادلات المتناقضة. ومن دواعي الاسف ان كان الاب لامانس – الذي هو من افضل المستشرقين المعاصرين – من اشدهم تعصبا وانه شوه كتبه الرائعة الدقيقة وافسدها بكرهه للاسلام ونبي الاسلام فعند هذا العالم اليسوعي ان الحديث اذا وافق القرآن كان منقولا عن القرآن فلا ادري كيف يمكن تأليف التاريخ اذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة بدلا من ان يؤكد احدهما الاخر "[١٧].

إن هذا يقودنا إلى موقف بعض المستشرقين من القرآن الكريم كمصدر اساسي من مصادر السيرة وذلك ان اعتماد القرآن الكريم في هذا المجال يمكن ان يعد سلاحا ذا حدين ويتمثل الحد السلبي بنفي الكثير من احداث السيرة ما دامت لم ترد في القرآن الكريم وكأن القرآن كتاب تاريخي خاص بتفاصيل حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) وهذا مكنهم من عملية انتقاء مغرضة ذات طابع هدمي معاكس وهي التشكيك أو نفي كل رواية لم ترد مؤيداتها في القرآن، ولا سيما اذا كان في هذه الرواية تمجيد للنبي (صلى الله عليه وسلم) أو كان في نفيها تأكيد لاحدى وجهات النظر الاستشراقية فمثلا نجد شبرنكر يرى ان اسم النبي (صلى الله عليه وسلم) ورد في اربع سور من القرآن هي آل عمران والاحزاب ومحمد والفتح، وكلها سور مدنية ومن ثم فان لفظة (محمد) لم تكن اسم علم للرسول قبل الهجرة وانما اتخذه بتأثير قراءته للانجيل واتصاله بالنصارى[١٨].

---

(١٦) د. جواد علي : تاريخ العرب في الاسلام ، جزء ١، ص٩-١١.

(١٧) حياة محمد ، المقدمة ، ص٨-١١.

(١٨) أنظر : جواد علي ، تاريخ العرب ، ٧٨/١ وهوامشها.

وقد يتوجب ان نسأل شبرنكر هنا : اذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد التقط اسم (محمد) من خلال قراءاته لنبوءات الانجيل فاين ذهب – اذن – (محمد) الحقيقي الذي بشر به العهدان القديم والجديد ؟

هنالك مثل آخر : ان اسرائيل ولفنسون يشير بصدد مهاجمة يهود بني النضير الى ان مؤرخي العرب يذكرون سببا آخر لاعلان الحرب على هذه الطائفة اليهودية ذلك هو محاولتهم اغتيال الرسول (صلى الله عليه وسلم) (لكن المستشرقين – يقول ولفنسون – ينكرون صحة هذه الرواية ويستدلون على كذبها بعدم وجود ذكر لها في سورة الحشر التي نزلت بعد اجلاء بني النضير)[١٩].

إننا في مجال التشكيك والنفي الاعتباطي لابد ان نذكر العبارة التي قالها (مونتغمري وات) – موضوع هذه الدراسة بهذا الصدد " اذا اردنا ان نصحح الاغلاط المكتسبة من الماضي بصدد محمد فيجب علينا في كل حالة من الاحوال التي لا يقوم الدليل القاطع على ضدها ان نتمسّك بصلابة بصدقه ويجب ان لا ننسى أيضاً ان الدليل القاطع يتطلب لقبوله اكثر من كونه ممكناً. وانه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه[٢٠].

ونحن نستطيع ان نضع ايدينا على عشرات بل مئات من الشواهد على النفي الكيفي الذي مارسه المستشرقون وبخاصة اجيالهم السابقة ازاء وقائع السيرة فبروكلمان – على سبيل المثال – لا يشير إلى دور اليهود في تأليب الاحزاب على المدينة ولا إلى نقض بني قريظة عهدها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في اشد ساعات محنته لكنه يقول " ثم هاجم المسلمون بني قريظة الذين كان سلوكهم غامضا على كل حال "[٢١].

ويتغاضى اسرائيل ولفنسون عن دور نعيم بن مسعود في معركة الخندق كسبب في انعدام الثقة بين المشركين واليهود[٢٢] ، ولعله يريد ان يوحي بذلك ان اليهود لا يمكن ان يخدعوا !

---

(١٩) تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، ص١٣٥-١٣٧.

(٢٠) محمد في مكة ، ص٩٤.

(٢١) تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص٥٣-٥٤.

(٢٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ص١٤٥-١٤٦.

لـيس الشـك والنفـي الاعتبـاطي وحـدهما ولكنـه الاعتمـاد علـى الروايـات الضـعيفة الشاذة التي قد لا تصمد امام النقد " لقد اخذ المستشرقون – كما يقول الدكتور جواد علي – بالخبر الضعيف في بعض الاحيان وحكموا بموجبه واستعانوا بالشاذ والغريب وقدموه على المعروف المشهور استعانوا بالشاذ ولو كان متأخرا أو كان من النوع الذي استغربه النقدة واشاروا إلى نشوزه تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ هو الاداة الوحيدة في اثارة الشك "[٢٣].

ثانياً : استقاط الرؤية الوضعية العلمانية والتأثيرات البيئية المعاصرة على الوقائع التاريخية:

إنه من المتعذر بل من المستحيل كما يؤكد آتيين دينيه " ان يتجرد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة وانهم – لذلك – قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغا يخشى على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها وبرغم ما يزعمون من اتباعهم لاساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي الجاد فاننا نجد من خلال كتاباتهم محمدا يتحدث بلهجة المانية اذا كان المؤلف ألمانياً وبلهجة ايطالية اذا كان الكاتب ايطاليا وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب واذا بحثنا في هذه السيرة عن الصورة الصحيحة فاننا لا نكاد نجد لها من اثر ان المستشرقين يقدمون لنا صورا خيالية هي ابعد ما تكون عن الحقيقة انها ابعد عن الحقيقة من اشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها امثال (وولتر سكوت) و(اسكندر ديماس) وذلك ان هؤلاء يصورون اشخاصا من ابناء قومهم فليس عليهم إلاّ ان يحسبوا حساب اختلاف الازمنة ، أما المستشرقون فلم يمكنهم ان يلبسوا الصورة الحقيقية لاشخاص السيرة فصوّروهم حسب منطقهم الغربي وخيالهم العصري. " وما يلبث دينييه ان يضرب مثلا معاكسا فيقول " ما رأي الاوربيين في عالم من اقصى الصين يتناول المتناقضات التي تكثر عند مؤرخي الفرنسيين ويمحصها بمنطقه الشرقي البعيد ثم يهدم قصة (الكاردينال ريشليو) كما نعرفها ليعيد الينا (ريشيليو) آخر له عقلية كاهن من كهنة بكين وسماته وطبعه ؟ ان مستشرقي العصر الحاضر قد انتهوا إلى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق بسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويخيل الينا اننا نسمع محمدا يتحدث في مؤلفاتهم اما

(٢٣) تاريخ العرب في الاسلام ، ١/٨-١١.

باللهجة الالمانية أو الانكليزية أو الفرنسية ولا نتمثله قط بهذه العقلية والطباع التي الصقت به يحدث عرباً باللغة العربية " وينتهي المستشرق الفرنسي – الذي اعلن اسلامه – الى القول " ان صورة نبينا الجليلة التي خلفها المنقول الاسلامي تبدو اجل واسمى اذا قيست بهذه الصورة المصطنعة الضئيلة التي صيغت في ظلال المكاتب بجهد جهيد "[٢٤].

ويشير الدكتور جواد علي إلى ان كيتاني وهو من كبار المستشرقين الاوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يعتمد منهجا معكوسا في البحث يذكرنا بكثير من المختصين الجدد في حقل التاريخ الاسلامي والذين يعملون وفق منهج خاطئ من اساسه إذ انهم يبيتون فكرة مسبقة ثم يجيئون إلى وقائع التاريخ لكي يستلوا منها ما يؤيد فكرتهم ويستبعد ما دون ذلك فلقد كان كيتاني (ذا رأي وفكرة) وضع رأيه وكوّنه في السيرة قبل الشروع في تدوينها فاذا شرع بها استعان بكل خبر من الاخبار ظفر به ضعيفها وقويها وتمسك بها كلّها ولا سيما ما يلائم رأيه ولم يبال في الخبر الضعيف بل قواه وسنده وعده حجة وبنى حكمه عليه ومن يدري فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء ولكنه عفا عنها وغض نظره عن اقوال اولئك العلماء فيها لانه صاحب فكرة يريد اثباتها باية طريقة كانت وكيف يتمكن من اثباتها واظهارها وتدوينها اذا ترك تلك الروايات وعالجها معاجة نقد وجرح وتعديل على اساليب البحث الحديث " ؟ [٢٥].

وترد في ختام كتاب اتيين دينيه (الشرق كما يراه الغرب) بعض الاراء حول هذا المنهج حيث يقول " لقد اصاب الدكتور سنوك هيرغرنجه بقوله : (ان سيرة محمد الحديثة تدل على ان البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم اذا سخرت لأية نظرية أو رأي سابق) هذه حقيقة يجمل بمستشرقي العصر جميعا ان يضعوها نصب اعينهم فانها تشفيهم من داء الاحكام السابقة التي تكلفهم الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلون إلى نتائج لا شك خاطئة· فقد يحتاجون في تأييد رأي من الآراء إلى هدم بعض الاخبار وليس هذا بالامر الهين ثم إلى بناء اخبار تقوم مقام ما هدموا وهذا امر لا ريب مستحيل ان العالم في القرن العشرين يحتاج إلى معرفة كثير من العوامل الجوهرية كالزمن والبيئة والاقليم والعادات والحاجات والمطامح

---

(٢٤) محمد رسول الله ، المقدمة ، ص٢٧–٢٨، ٤٣–٤٤.

(٢٥) تاريخ العرب في الاسلام ، ٩٥/١.

والميول. إلى آخره ولا سيما ادراك تلك القوى الباطنة التي لا تقع تحت مقاييس المعقول والتي يعمل بتأثيرها الافراد والجماعات "[٢٦].

وفضلاً عن هذا نجد ان الطابع العلماني الوضعي والرؤية المحدودة للمناهج الغربية في تعاملها مع تأريخنا اوقع عددا من المستشرقين في خطا اخر مفاده ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يخطو خطوة واحدة وهو يعلم مسبقا ما الذي يليها أي ان نشاطه كانت توحي به الظروف الراهنة ومتطلباتها ولوازمها وابرز مثل في هذا المجال ما ذكره فلها وزن وعدد من رفاقه حول اقليمية الحركة الاسلامية في عصرها المكي وانها لم تنتقل إلى المرحلة العالمية – في العصر المدني – الا بعد ان اتاحت لها الظروف ذلك ، ولم يكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليفكر بذلك من قبل وما قالوه حول اعتماد الرسول (صلى الله عليه وسلم) اسلوب (اللاعنف) في العصر المكي وتحوله إلى القوة بعد ان شكل دولة في المدينة وتجمع حوله المقاتلون " لقد كان في وسع محمد – يقول فلها وزن – من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التي ترسمها رابطة الدم – ان يحطم رابطة الدم هذه لانها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها – ولا كانت ذات صيغة خارجية عارضة هذا هو الذي جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب عنها ولكن محمدا لم يرد ذلك ومن الجائز أيضاً انه لم يكن يستطيع ان يتصور امكان رابطة دينية في حدود غير حدود رابطة الدم "[٢٧]. ويرفض سير توماس ارنولد في كتابه (الدعوة إلى الاسلام) هذه الرؤية الخاطئة فيقول " من الغريب ان ينكر بعض المؤرخين ان الاسلام قد قصد به مؤسسه في بادئ الامر ان يكون دينا عالميا برغم هذه الآيات البينات[٢٨]. ومن بينهم السير وليم موير إذ يقول (إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد وان هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والاحاديث التي تؤيدها، لم يفكر فيها محمد نفسه وعلى فرض انه فكر فيها فقد كانت الفكرة غامضة فان عالمه الذي كان يفكر فيه انما كان بلاد العرب كما ان هذا الدين الجديد لم يهيئ الا لها وان محمدا لم يوجه دعوته منذ بعث إلى ان مات الا للعرب دون غيرهم وهكذا نرى ان نواة عالمية الاسلام قد غرست

---

(٢٦) محمد رسول الله ، المقدمة ، ص٤٣–٤٤.

(٢٧) الدولة العربية وسقوطها ، ص٤.

(٢٨) يستشهد ارنولد بالايات التالية : سورة ٣٦ (آية ٦٩–٧٠) ، سورة ٢١ (آية ١٠٧) ، سورة ٢٥ (آية ١) ، سورة ٢٤ (آية ٧) ، سورة ٦١ (آية ٩) ، إلى آخره.

ولكنها اذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك فانما يرجع ذلك إلى الظروف والاحوال اكثر منها إلى الخطط والمناهج "[٢٩].

ويجيب ارنولد " لم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب بل للعالم اجمع نصيب فيها ولم يكن هناك غير اله واحد كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى اليه الناس كافة "[٣٠].

ولم يقف ارنولد وحده بمواجهة هذا الخطأ الواضح انما هناك كولدزيهر ونولدكه وسخاو الذي يؤكد " ان الرسالة الالهية ليست مقصورة على العرب بل ان ارادة الله تشمل جميع المخلوقات ومعنى ذلك خضوع الانسانية كلها خضوعا مطلقا وقد كان لمحمد بوصفه رسولا من الله حق المطالبة بهذه الطاعة وقد كان عليه ان يطالب بها وهذا ما ظهر في اول الامر جزءا لا ينفصل من جملة ما اراد تحقيقه من مبادئ "[٣١].

ويرفض آرنولد الخطأ الآخر الذي يرى " ان محمدا قد تحول إلى القوة بمجرد ان واتته الظروف وهو رائ قد صرح به نقلا عن فلها وزن بعض الباحثين ولا سيما ميور لدى حديثه عن غزوة بني قريظة "[٣٢].

إلا ان آرنولد لم ينج من الوقوع في الخطأ نفسه عندما يقول " كانت رغبة محمد ترمي إلى تأسيس دين جديد وقد نجح في هذا السبيل ولكنه في الوقت نفسه اقام نظاما سياسيا له صفة جديدة متميزة تميزا تاماً وكانت رغبته بادئ الامر مقصورة على توجيه بني وطنه إلى الاعتقاد بوحدانية الله "[٣٣].

إن فهم السيرة لا يمكن ان يتم إلاّ وفق نظرة شمولية تدرس حركة الاسلام كخطوات في برنامج شامل مرسوم في علم الله ومحدد في قرآنه وان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن سوى منفذ لهذا البرنامج باسلوب يعتمد على قدراته واخلاقيته وذكائه وامكاناته الفذة في

---

(٢٩) the caliphate ,pp.43-44 وكايتاني اخر من يؤيد هذا الراي .annali dell Islam,V.323 - 324
عن ارنولد : الدعوة إلى الاسلام ، هامش ٢ ، ص٤٩-٥٠.

(٣٠) المرجع السابق ، ص٤٨.

(٣١) نفسه ، هامش ١ ، ص٤٨.

(٣٢) نفسه ، هامش ١ ، ص٥٤.

(٣٣) نفسه ، هامش ٢ ، ص٥٢.

التخطيط والتنفيذ وبالرغم من ان القرآن الكريم نزل منجما وراحت آياته تنزل على مكث لكي تلامس الاحداث وتعلق عليها (بعد وقوعها) الا انه بمجموعة كمبدأ " ايديولوجية " لا يخرج عن نطاق كونه برنامجا الهيا شاملا ترتبط ممارساته الجزئية بكليات شاملة محددة سلفا في علم الله ومن ثم فان (الظروف الراهنة) ليست هي الحتمية الموقته التي تحدد مسار الاسلام وخطى رسوله (صلى الله عليه وسلم) انما هناك (الهدف) الذي يفرض احيانا (وقفة) ضد الاعراف والظروف (وتمردا) عليها و(انقلابا) شاملا على مواضعاتها وهذا ما يبدو واضحا منذ اول لحظة في الشعار الحاسم الذي طرحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بوجه الجاهلية (لا اله الا الله) فأي الظرف راهن موقوت أوحي بهذا الشعار الانقلابي الشامل الذي جاء يدمر على الوجود الجاهلي جل قيمه واهدافه ومعالمه ومفاهيمه وعاداته وتقاليده ؟ ان توماس ارنولد يشير إلى ذلك بوضوح عندما يقول " لا يغرب عن البال كيف ظهر جليا ان الاسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية وكيف كانت تتعارض المثل العليا في هذين المجتمعين تعارضا تاما ذلك ان دخول الاسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب وانما كان انقلابا كاملا لمثل الحياة التي كانت من قبل. والواقع ان المبادئ الاساسية في دعوة محمد كانت تتعارض مع ما كان ينظر اليه العرب نظرة ملؤها التقدير والاجلال حتى ذلك الحين كما انها كانت تعلم حديثي العهد بالاسلام بان يعدو من الفضائل صفات كانوا قبل اسلامهم ينظرون اليها نظرة الاحتقار "[٣٤].

إن القرآن الكريم كان قضية فوقية جاءت آياته لتقود الانسان في كل زمان ومكان إلى عصر جديد ولم يكن ينفعل انفعالا مؤقتا بالوضع السائد سلبا وايجابا كما يتصور معظم المستشرقين مسيحيين وماديين (كما سنرى) وانما كان ينظر نظرة شمولية بعيدة كل البعد عن رد الفعل المباشر وهذا هو الذي يفسر لنا الكثير من الاخطاء التي مارستها مناهج البحث الاستشراقية في كافة اجنحتها.

ونحن لا نطلب من الغربيين هنا ان يؤمنوا ان القرآن الكريم منزل من السماء وان محمداً رسول الله. وانما نطلب ان يكونوا اكثر تجردا وموضوعية فينظروا إلى سيرة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) كوحدة عضوية متكاملة والى القرآن الكريم كبرنامج عقيدي مترابط

---

(٣٤) نفسه ، ص٢١-٦٢ ، وانظر بالتفصيل جولد زيهر في مؤلفه :muhammedanishe stidien, v.l,1

تعلو مكوناته على الظروف الموقوته زمانا ومكانا بالرغم من ملامساتها اليومية المباشرة للوقائع الزمانية والمكانية ولكنها الملامسة التي تنبثق عنها قيم ودلالات ذات طابع شمولي ما كان للمستشرقين ان يغفلوا عن ابعادها.

ثالثاً : رد معطيات السيرة إلى اصول نصرانية أو يهودية :

إن هذا التصور (المسبق) يكاد ياخذ برقاب المستشرقين ويضع بصماته العميقة على مناهجهم في التعامل مع وقائع السيرة وظاهرة النبوة. ويحاول الدكتور جواد علي ان يبين الاسباب " ان معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين أو من المتخرجين من كليات اللاهوت وهم عندما يتطرقون إلى الموضوعات الحساسة من الاسلام يحاولون جهد امكانهم ردها إلى اصل نصراني وطائفة المستشرقين من اليهود، وخاصة بعد تأسيس (اسرائيل) وتحكم الصهيونية في غالبيتهم يجهدون انفسهم برد كل ما هو اسلامي وعربي لأصل يهودي وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والاهواء "[٣٥].

ويلقي (طيباوي) مزيدا من الضوء على هذه العقدة المنهجية في العقل الاستشراقي وعلى دوافعها المذهبية فيقول : " ان النظرة الاولى للاسلام تكشف مواضع شبه بين الاسلام والمسيحية ولكن النظرة الفاحصة عن قرب تبرز خلافات اساسية وهذه الحقيقة كانت غالبا ما تثير المبشرين في الماضي وما زالت تستميل قليلا في المجال الاكاديمي إلى التحايل على تصيّد مثل هذه الشوارد كاصول للاسلام. وينزع المبشر والباحث الاكاديمي إلى ان يتناسى وهو ينال من قدر محمد بطريق مباشر أو غير مباشر كيف يقدس المسلمون الاتقياء المسيح. وفي كتاب قريب من سلسلة بنغوين عمل مستشرق وهو قسيس انجليكاني على عقد عدة مقارنات ليظهر ان الاسلام كان صورة غير محكمة أو مشوهة للمسيحية. وهناك دارس آخر للاسلام هو أيضاً من رجال الكهنوت (ويقصد به ولفرد كانتول سميث) يستحق الذكر هنا بوجه خاص بسبب تقديمه لمزيد من الجدل السطحي (Spectulation) الذي يعرض للتشابه بين المسيحية والاسلام وهو يكتب : " ان من اسباب تباعد الاسلام والمسيحيين بعضهم عن بعض ان كلا الفريقين قد أساء فهم عقيدة الاخر بمحاولته ان يضعها خلال طراز الاعتقاد

---

(٣٥) تاريخ العرب في الاسلام ، ١/٩-١١.

الذي يؤمن به "[٣٦]. وشأن كثير من التعميمات لا يبدو مثل هذا النص منصفا كما يحاول ان يكون فان المسيحيين وحدهم هم الذين ظلوا طوال القرون يحاولون فهم الاسلام – أو اساءة فهمه – من خلال اصطلاحات المسيحية اما النظرة الاساسية للمسلم فقد ظلت على حالها لم تتغير على الدوام لانها جزء من الوحي الالهي في القرآن ولم يحاول مسلم مؤمن ان يدخل المسيحية في اطار آخر والمسيحي لا يواجه في كتبه المقدسة قيودا صريحة تحجزه عن تقبل وجهة نظر المسلم في الاسلام ومع ذلك فهو يرفض – لا رأي المسلم في المسيحية فحسب – بل رأيه في الاسلام أيضاً وهو يسعى جاهدا لتغيير الرأيين. وهذا مبشر قديم يحاضر في الشريعة الاسلامية بجامعة لندن لا يبدي احتراما يذكر لذكاء القارئ ويعلن في مقدمة مقال له انه يقدم معلومات صحيحة لمعالجة الدراسة موضوعياً حتى يكون منصفا مدققا ولكن بعد هذا كله يكتب : (انه لا يمكن ان يكون هناك شك على أي صورة ان محمدا قد تمثل افكارا من التلمود وبعض المصادر المحرفة اما بالنسبة للمسيحية فان هناك احتمالا طاغيا بأن محمدا قد استمد ايحاءه منها). ومن اجل تبين مدى موضوعية المبشر المذكور يجب ان نقرأ هذه الكلمات التي وردت في ختام مقاله (ان للعالم ان يرى ماذا سوف يحدث حين يعرض انجيل المسيح الحي بالصورة الملائمة لملايين المسلمين) !![٣٧].

وامتداداً لهذه الازمة (المذهبية) التي تؤثر سلبا على نقاء المنهج الاستشراقي يلمس المرء في معطيات المستشرقين تعاطفا مع العناصر والقوى المضادة للاسلام ولنبّيه (عليه الصلاة والسلام) ولا ريب ان ما يتمخض عن هذا من (كراهية تضع جدراناً بين القوم وبين الفهم الصحيح لوقائع السيرة وتصيب مناهج العمل بمزيد من التشنّج. وفرق كبير بين الحكم الذي يصدره قاض يقف موقفا محايدا بين طرفي القضية والحكم الذي يصدره قاض يتعاطف مع احد الطرفين ويكره الاخر أو يدينه ابتداء !!

الشواهد كثيرة ويكفي ان يقرأ المرأ كتابات مرغوليوث أو فلها وزن أو بروكلمان ليرى بأم عينه اتساع هذا التيار في المعطيات الاستشراقية.

---

(٣٦) المستشرقون الناطقون بالانكليزية ، مجلة The Muslim World عدد تموز ، سنة ١٩٦٣ ، ترجمة: د. محمد فتحي عثمان ، عن د. محمد البهي : الفكر الاسلامي الحديث ، ص٥٩٣-٦٠١.

(٣٧) نفسه.

مثلا : نقرأ لدى بروكلمان هذا النص ". لم يطل العهد بمحمد حتى شجر النزاع بينه وبين احبار اليهود فالواقع انه على الرغم مما تم لهم من علم هزيل في تلك البقعة النائية كانوا يفوقون النبي الامي في المعلومات الوضعية وفي حدة الادراك "[٣٨]. ونقرأ " كان على محمد ان يعوض خسارة احد التي أصابت مجده العسكري من طريق آخر ففكر في القضاء على اليهود فهاجم بني النضير لسبب واهٍ "[٣٩].

ويضرب فلها وزن على الوتر نفسه فيقول " لم يبق الاسلام على تسامحه بعد بدر بل شرع في الاخذ بسياسة ارهاب في داخل المدينة وكان اثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول. اما اليهود فقد حاول ان يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد وفي غضون سنوات قليلة اخرج كل الجماعات أو قضى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة حيث كانوا جماعات متماسكة كالقبائل العربية وقد التمس لذلك أسبابا واهية "[٤٠].

ويظهر مرغوليوث عطفه – هو الآخر – على اليهود ويرى ان اقتحام خيبر محض ظلم نزل باليهود لا مسوغ له على الاطلاق " عاش محمد هذه السنين الست ما بعد هجرته على التلصص والسلب والنهب ولكن نهب اهل مكة قد يسوغه طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع املاكه وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة فقد كان هناك – على أي حال – سبب ما حقيقيا كان ام مصطنعا يدعو إلى انتقامه منهم الا ان خيبر التي تبعد عن المدينة كل هذا البعد لم يرتكب اهلها في حقه أو حق اتباعه خطأ يعتبر تعديا منهم جميعا لأن قتل احدهم رسول محمد لا يصح ان يكون ذريعة للانتقام وهذا يبين لنا ذلك التطور العظيم الذي طرأ على سياسة محمد ففي ايامه الاولى في المدينة اعلن معاملة اليهود كمعاملة المسلمين لكن الان (بعد السنة السادسة للهجرة) اصبح يخالف تماما موقفه ذلك فقد اصبح مجرد القول بان جماعة ما غير مسلمة يعد كافيا لشن الغارة عليها وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التي اثرت على نفس محمد والتي دفعته إلى شن غارات متتابعة كما سيطرت على نفس الاسكندر من قبل

---

(٣٨) تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص٤٧.

(٣٩) نفسه ، ص٥٢.

(٤٠) الدولة العربية وسقوطها ، ص١٥-١٦.

ونابليون من بعد. ان استيلاء محمد على خيبر يبين لنا إلى أي حد قد اصبح الاسلام خطرا على العالم "[٤١].

بل انهم ليتعاطفون مع العرب الوثنيين ضد الاسلام بالرغم من ان الوثنية تمثل موقفا رجعيا هو في بدأ التحليل ومنتهاه : ضد التحضير. ويجد المرأ نفسه مضطرا لعقد مقارنة بينهم وبني اسلافهم (زعماء يهود خيبر) الذين وقفوا امام ابي سفيان واصحابه من زعماء قريش يقسمون بالله ان دين الوثنية خير من دين محمد وانهم اولى بالحق منه[٤٢] والهدف في الحالتين واضح لا ريب.

يقول بروكلمان " لقد حالت الظروف بين الرسول وبين الشروع في شن حملة نظامية مباشرة على المشركين فقد كانت فكرة الشرف العربية القديمة تمسك المهاجرين عن محاربة اخوانهم في قريش في حين كان المدنيون غير شديدي الميل إلى تعكير صفو السلم مع جيرانهم الاقوياء. حتى اذا كان شهر رجب الحرام وجه جماعة من الغزاة باوامر سرية فوقفت إلى مباغتة قافلة بالعروض كانت حاميتها العسكرية تتقدمها مطمئنة إلى حرمة الشهر فأصابت غنائم عظيمة عادت بها إلى المدينة ولكن هذا النقض للقانون الخلقي القبلي لم يلبث ان اصاب عاصفة من الاستنكار في المدينة فما كان من محمد الا ان انكر صنيع اتباعه الذي تم وفقا لرغباته بلا خلاف وعزاه إلى سوء فهم لاوامره "[٤٣].

ويتمنى نولدكه " لو ان القبائل العربية استطاعت ان تعقد بينها محالفات عربية دقيقة بين محمد للدفاع عن طقوسهم وشعائرهم الدينية والذود عن استقلالهم اذن لاصبح جهاد محمد ضدهم غير مجد الا ان عجز العربي عن ان يجمع شتات القبائل المتفرقة قد سمح له ان يخضع لدينه القبيلة تلو الاخرى وان ينتصر عليهم بكل وسيلة فتارة بالقوة والقهر وتارة بالمحالفات الودية والوسائل السلمية "[٤٤].

وعلى الرغم من ان العديد من ابناء هذه الطبقة من المستشرقين كشفوا – بتعمقهم ونفاذهم واحاطتهم – النقاب عن بعض الجوانب المضطربة الغامضة في تاريخنا الاسلامي

---

(41) Mahammed and the Rise of Islam. pp. 63-202.

(٤٢) ابن هشام : تهذيب ، ص٢١١-٢١٢، الواقدي : المغازي : ص٤٤١-٤٤٣.

(٤٣) تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص٤٤.

(٤٤) تاريخ العرب للمؤرخين ، ١١/٨.

عامة بما فيه سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الا انهم باخطائهم المنهجية التي عرضنا لبعض انماطها طرحوا الكثير من النتائج والآراء الخاطئة على مستوى الموضوع وهذا امر طبيعي فالخطأ لا ينتج الا الخطأ والبعد عن الموضوعية لا يقود الا إلى نتائج لا تحمل من روح العلم والجدية الا قليلا.

ولن يتحمل بحث موجز كهذا عرض وتحليل ومناقشة هذه الآراء والنتائج فلهاذا كله مجال آخر وليس من نافلة القول الاشارة إلى ان هذه الاراء تمثل حصادا ضخما يمكن ان يجنيه كل دارس بتأنٍ وروية لما كتبه هؤلاء المستشرقون عن حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو حصاد يحمل في ثناياه كما رأينا عناصر تناقضه واضطرابه وخروجه على البحث العلمي المنهجي الدقيق.

ولكن القوم اذا توخينا الحكم الدقيق ليسوا كلهم سواء فقد شذ عنهم بعض المستشرقين – ولكل قاعدة شواذ وبالرغم من قلة هؤلاء بالنسبة للتيار الاوسع والاثقل فان صوتهم لم يضع وقد مارسوا كشفا نقديا طيبا للكثير من اعمال رفاقهم في البحث والقوا الضوء على الثغرات والمطبات التي وقعوا فيها. وقد عرضنا لبعض مواقف هؤلاء : دينيه وات درمنغهم ارنولد. على الرغم من ان هؤلاء انفسهم ما كانت رؤيتهم تصل ابدا درجة النقاء العلمي المطلوب فهذا الامر يكاد يكون مستحيلا !!

***

– ٣ –

مع بداية القرن ونجاح الثورة البلشفية في روسيا بدأ يطل موقف جديد ازاء رسولنا (عليه الصلاة والسلام) وتاريخنا الاسلامي بعامة ينبثق عن التفسير المادي للتاريخ ويسعى إلى اخضاع حقائق السيرة لمقولاته الصارمة. يفصلها على مساحات منهجه المرسوم سلفا يقطع أوصالها لكي يرفض وينفي ويستبعد ما لا ينسجم ومطالب هذا المنهج وياخذ ويستبقي ما ينسجم وهذه المقولات. وتحسب ما يأخذ مما يدع فلا يعدو ان يكون واحدا من عشرة في حساب الارقام.

واذ كانت وقائع السيرة تتأبى على تحليلهم ومحاولاتهم القسرية فانهم يزدادون شططا في التقطيع والتمزيق وفي التفسير والتاويل حتى لقد وصل الامر بهم إلى ان يبلغوا حد

المجانية في التعليل والتحوير لتحقيق التطابق المرتجى بين الوقائع والفسلفة الامر الذي جعل احدهم ينقض رأي الآخر وينحرف بتحليله في اتجاه نقيض تماما على الرغم من انهم تلامذة مدرسة واحدة ورؤية مشتركة للتاريخ ولكن لا بأس : فما داموا من المؤمنين بفلسفة النقيض فليتصد احدهم للاخر ولينقض بعضهم رأي الاخر فلابد انهم واصلون يوما موحدهم المرتجى. لننظر على سبيل المثال إلى بعض ما قالوه وهو كثير بصدد سيرة رسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم) " لقد رأى بعضهم ان المجتمع العربي (في مكة والمدينة) شهد بداية تكوين مجتمع يمتلك الرقيق بينما يرى (بيجو لفسكايا) ان القرآن يشعر بتركز مرحلة ملكية الرقيق ويذهب مع (بلاييف) إلى ان المرحلة الاقطاعية هي من اثار اتصال العرب بالشعوب الاخرى هذا ويرى آخرون ان المجتمع الاقطاعي بدأ بالتكون فعلا ويتبع هذا قلق في التفسير فمنهم من يرى ان الاسلام يلائم مصالح الطبقات المستغلة الجديدة من ملاك وارستقراطية الاقطاع مثل (كليمو فيج) ومنهم من يراه في مصلحة ارستقراطية الرقيق فقط في حين ان البعض مثل (بلاييف) يرى ان الاسلام المتمثل بالقرآن لا يلائم المصالح السياسية والاجتماعية للطبقات الحاكمة فلجأ اصحابه إلى الوضع في الحديث لتسويغ الاستغلال الطبقي الجديد.

" وفي حين ان بعضهم يقول إن الارستقراطية وحدت القبائل العربية لتحقيق اغراضها يقول غيره ان القبائل كانت تتوثب للوحدة فجاء الاسلام موحدا يعبر عن ذلك التوثب.

" ويضطرب الموقف من منشأ الاسلام ذاته فبينما يدعّي (كليموفيج) ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) واحدا من عدة انبياء ظهروا وبشروا بالتوحيد واراد توحيد القبائل يذهب (تولستوف) إلى نفي وجود النبي العربي (صلى الله عليه وسلم) ويعده شخصية اسطورية وبينما يعترف البعض بظهور الاسلام يذهب (كليموفيج) إلى ان جزءا كبيرا منه ظهر فيما بعد في مصلحة الاقطاعيين ونسب اصله إلى فعاليات معجزة لمحمد وتجاوز (تولستوف) إلى ان الاسلام نشأ من اسطورة صنعت في فترة الخلافة لمصلحة الطبقة الحاكمة وهي اسطورة مستمدة من اعتقادات سابقة تسمى الحنفية "[٤٥].

---

(٤٥) أنظر بالتفصيل : عبد العزيز الدوري ورفاقه : تفسير التاريخ ، ص١٤-١٦.

ألا يقترب هذا ان يكون دينا جديداً لا يقل عن النصرانية – يومها – حقدا على الاسلام وكراهية لنبيه (عليه الصلاة والسلام) وبعدا عن المنهجية من التعامل مع الوقائع والاحداث ؟ واتباع المدرسة المادية أليسوا هم رهبانا جددا في موقفهم من رسولنا (عليه الصلاة والسلام) وتاريخنا غيروا ازياءهم ولكنهم ظلوا من داخل نفوسهم رهبانا ينتمون للكهنوت المادي الجديد الذي ما كان تدخينه على الرؤية النقية ازاء سيرة رسولنا (عليه الصلاة والسلام) بأقل كثافة من الدخان الذي اثاره رجال النصرانية الاوائل ؟ هذا احد ابناء الكنيسة المادية : بندلي جوزي[٤٦] يقول محللا بعض مواقف رسولنا (عليه الصلاة والسلام) " ان سياسة النبي مع المكيين قد تغيرت كثيرا في المدينة تحت تأثير عوامل جديدة اوجدتها الظروف وادى اليها الاختيار وحب النبي لوطنه الاصلي واهله وذويه إلى غير ذلك من الانفعالات النفسية والعوامل السياسية التي ظهرت بعد موقعتي بدر واحد وحصار المدينة وكان من نتائجها ان النبي اخذ يلطف من سياسته نحو اخوانه المكيين كما ان اصحاب السلطة في مكة رأوا. بعد ما اصابهم في موقعة بدر وبعدما لحق بتجارتهم من الخسائر – ان يتساهلوا في امور كثيرة مع النبي – على شروط تضمن بقاء الكعبة والحج وعكاظ على ما كانت عليه قبل الاسلام وان يشملهم بالعفو ويشركهم في عمله الجديد الذي اخذوا يتوقعون منه خيرا. وربما كان من شروط التفاهم[٤٧] ان يبقى النبي في المدينة والا يتعرض في كلامه لامورهم المادية. فكانت الحديبية وسياسة (تأليف القلوب) أو بعبارة اخرى سياسة التسامح والتساهل المتبادل فصار الناس **{وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً }** لا عن اعتقاد بصحة الدين الجديد الذي لم يكونوا يعرفون عنه الا الشيء القليل بل عن رغبة في التقرب من اصحاب السلطة الجدد وحفظا لمراكزهم القديمة وثروتهم المجموعة في اجيال يخيل لي – يقول جوزي – ان من جملة الشروط التي اتفق عليها الطرفان في الحديبية – أو في زمان أو مكان آخرين – ان يكف النبي عن الطعن في الملأ المكي والا يحرض صعاليك العاصمة الحجازية وارقائها عليه وهذا على ما يظهر لي أحد اهم اسباب خلو السور المدنية ولا سيما تلك التي نزلت في الدور الاخير من العبارات القارصة

---

(٤٦) بندلي جوزي (١٨٧١–١٩٤٢م) نصراني من اهل القدس ، تخصص في قازان باللغات السامية والدراسات الشرقية ، وتولي التدريس في معهد الرهبان ، ثم في جامعة قازان ، ثم في جامعة باو ، إلى ان توفي. وقد عده المستشرقون الروس مرجعا من مراجعهم : (عن كتاب نجيب العقيقي : المستشرقون ٩٣١/٣).

(٤٧) أي تفاهم هذا ؟ وفي أي مكان وزمان تم؟ وأية رواية اوردته ؟ وفي أي مصدر على الاطلاق؟

والطعن في سكان مكة[٤٨]. وهناك سبب اخر لا يقل خطورة عن الذي ذكرناه الان وهو حالة النبي الاجتماعية في المدينة تغيرت – كما هو معلوم – تغيرا ظاهرا ادى إلى تغيير نفسيته فكان من نتائج هذا التغيير ومن الاسباب التي ذكرنا بعضها وغيرها مما لم نذكر (؟) ان بعض اصلاحات النبي الاجتماعية والدينية جاءت مبتورة وفيها شيء مما يدعوه الاوربيون التساهل "[٤٩].

ويمضي بندلي جوزي إلى القول : " بان الدور المكي كان دور تمهيد واستعداد دور بث دعوة جديدة بين طبقات الامة ودور حرب ونزاع كلامي بين رجل ثابت في مبادئه مخلص في عمله وبين طبقة من الناس شعرت بالخطر على ثروتها وزعامتها في البلاد فهبت تقاوم ذلك الرجل وتناوئه. دور جهود واحلام لو تحققت كلها لقلبت البلاد راسا على عقب ما اجمل هذا الدور وما اعظمه وما احلى تلك الاحلام والمساعي التي بذلت في تحقيقها واما الدور الثاني فكان دور عمل وتنظيم ودور حروب وافتتاحات ودور سياسة ومكاشفات ادت إلى تساهل من الطرفين ومعنى التساهل في مثل هذه الثورات الاجتماعية هو التنازل عن بعض مطالب أو مبادئ أو التلطف في الطلب· والرجوع عن بعض الافكار أو وضعها في قالب يرضاه الفريقان وهذا ما كان من امر النبي العربي ورئيس جمهورية مكة (ابي سفيان) الخبير المحنك الذي كان يتكلم بلسان الملأ المكي هذا يعترف بسيادة النبي الروحية والعالمية ويهجر الاوثان ويؤدي الزكاة ويقيم الصلاة وذاك يتعهد ان تبقى مكة مركز البلاد العربية الديني وان يجعل لاعيان مكة وقادة افكارها حظا في ادارة المملكة أو الجمهورية الروحية الجديدة وان يتركهم وشأنهم يتاجرون ويعيشون كما يشاؤون اما الفريق الثالث أي الفقراء وهو الطرف الذي استعرت الحرب لاجله وظهرت الدعوة لتحسين احواله فقد ارضوه في باديء الامر بشيء من الصدقات والزكاة ثم نسوه أو تناسوه بعد وفاة النبي وخلفائه الاولين فرجع إلى حالته الاولى بل إلى ما هو اسوأ منها "[٥٠].

---

(٤٨) هذا غاية ما يمكن ان يصل اليه مؤرخ من خروج على مستلزمات البحث العلمي ، وعبث صريح بالوقائع التاريخية ، وإلا ففي أي زمان ومكان وضعت هذه الشروط ؟ واين هي من شروط صلح الحديبية التي توافرت بنصوصها الحرفية في كافة المصادر والمراجع.

(٤٩) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ، ص٤٩–٥٠.

(٥٠) نفسه ، ص٥١–٥٢.

ويقول في مكان آخر " لا شك ان النبي العربي لم يقصد باقواله وافعاله في مكة والمدينة إلى ان يستأصل اسباب الشر الاجتماعي ويقتل جميع جرائمه كما يحاول ان يفعل اليوم جماعة الاشتراكيين على اختلاف اسمائهم ونزعاتهم بل كانت غايته الكبرى ان يخفف من وطأة تلك الامراض على بعض طبقات الناس ممن خلقوا بعد قسمة الارزاق أو وقعوا في الفقر والرق لاسباب لم يقو على مقاومتها والا فلو اراد ان يقتل جراثيم الامراض الاجتماعية كلها لكان لجأ بعد ان اصبح صاحب الامر والنهي في جزيرة العرب إلى وسائل غير تلك التي ذكرناها.

" وما مثل النبي من هذا الوجه الا مثل الانبياء الذين سبقوه أي انه فضل استعمال الوسائل الادبية – الا فيما ندر من الظروف – على غيرها من الطرق التي لجأ اليها في عصرنا بعض مصلحي وسياسيي اوربا كلينين وموسوليني وغيرهما وعليه يمكننا ان نقول ان محمداً اجاد في وصف الامراض الاجتماعية العربية وتعدادها اكثر منه في علاجها واستئصال جراثيمها "(٥١).

وغير (بندلي جوزي) كثيرون. وهم للاسف : قد ازدادوا عددا مع الايام وكثر من سوادهم تلامذتهم المنتشرون ها هنا في الشرق بين ظهرانينا على الرغم من انهم محسوبون ظاهرا – على ديننا وعقيدتنا – ولكنها (موضة) منهجية اذا صح التعبير وتؤول إلى انحسار كما انحسرت من قبلها مدارس ومناهج وآراء وافكار وفلسفات كانت قد سيطرت على المؤسسة والشارع في بلادنا تقليدا لهذا الفكر الدخيل أو ذاك وتمسكا بهذا المنهج الوافد أو ذاك ولكنها لهجانتها وغربتها عن الارض التي تحركت فيها سرعان ما ذبلت وتيبست وعصفت بها رياح الزمن .. والذي يتبقى ابدا هو المنهج الاصيل.

وها نحن نشهد نكسر الموجة الجديدة وتحول دعاتها انفسهم إلى مواقف اكثر موضوعية واعتدالا بعد ان رأوا خطل ما كانوا فيه.

***

والذي يتبقى بعد هذا كله بعد موجات الرهبان والمستشرقين والماديين .. بعد غبارهم الذي اثاروه ودخانهم حجبوا به الرؤية الصافية .. الذي يتبقى هو وقائع السيرة نفسها كما تكونت يومها في الزمن والمكان. ويتبقى. الشخصية الفذة لصانع هذه الوقائع وقائدها في الزمان

---

(٥١) نفسه ، ص٤٤-٤٥.

والمكان. رسول اختارته عناية الله لقيادة البشرية صوب الغد المرتجى. ومع الرسول (عليه الصلاة والسلام) جيل من الرواد حملوا شرف الانتماء واستجابوا للتحديات وقدروا على ان يطووها بما يشبه الاعجاز فليست مناهج الرهبانية النصرانية والعلمانية الاستشراقية والمادية التاريخية بقادرة على ادراك البعد الحقيقي لهذا العصر الذي غير مجرى للتاريخ.

كما انهم ليسوا بقادرين على طمسه وتزييفه.

والذي يدرك هذا البعد ويستعيد جوهره النقي. هم ابناء الاسلام وحدهم وليس غيرهم أبداً من يقدر على حمل الامانة واداء الدور.

***

(محمد في مكة)

١ – النزعة الشكية والافتراض والنفي الكيفي

– ١ –

يبدو (مونتغمري وات) على مستوى تقنية البحث متفوقا بمعنى الكلمة وهو يمتلك اداة البحث ومستلزماته ويعتمد اسلوبا نقديا مقارنا يثير الاعجاب وقد تمكن بواسطته من تحقيق عدد من النتائج القيمة على مستوى السيرة وإن كان يلح احيانا في نزعته النقدية كما سنرى الامر الذي قاده كما قاد عددا من رفاقه واسلافه إلى تنفيذ عملية (تفي) واسع النطاق لمساحات من حقائق السيرة المتعارف عليها.

أما في الدائرة الثانية دائرة (الموضوعية) التي قال الرجل بأنه سيلتزمها في بحثه فانه لم يستطع ان يتحرر بالكلية من الضغوط المضادة وعوامل الشد اللامنهجية على الرغم من ان ثمة ما يميزه في عصر المذهبية التاريخية ويحسب لصالحه انه لا يفترض أو يعتنق رؤية محددة سلفا ويأتي إلى التاريخ لكي يعيد تركيبه وفق رؤيته تلك ويعالج وقائعه بما يجعلها تنسجم قسرا مع مقولات المذهب ويفصل ويقص ويمط الجزئيات التاريخية لكي تكون على (قد) القالب المصنوع سلفا. وينتقي ويتقبل كل ما يتناغم مع قناعاته هذه وما لا يكون كذلك يعزل ويستبعد.

إن الرجل يعتمد منهجا مغايرا هو اقرب إلى الموضوعية. انه يسعى لأن يبدأ حركته مع الوقائع التاريخية دون أي افتراض مسبق ثم تجيء استنتاجاته وتنظيراته مستمدة مما تقوله الوقائع نفسها ومما تتمخض عنه مكوناتها الاساسية وعلاقاتها المتشابكة.

لكننا مع ذلك يجب الا نذهب في حسن الظن إلى المدى. لأن الرجل بسبب من الحاحه على التجريب في ميدان الوقائع يرغمها – احيانا – على ان تتكلم على ان تقول أي شيء حتى لو كان مناقضا للتيار الاوسع والاعمق لحركة العصر الذي تتدفق عبره تلك الجزئيات التاريخية.

ويقينا فان الكثير من استنتاجات (وات) باحالتها على الارضية التاريخية الشاملة التي تنتمي اليها الوقائع التي شكلت الاستنتاج سوف ترتطم بالكثير من المسلمات والبداهات !!

ولا نريد ان نواصل اتهام الرجل بهذه الخطيئة أو تلك فتقع في مظنة المبالغة والهوى. والاحكام المسبقة. ولكننا بدلا من ذلك سنسعى إلى اختبار معطياته لنعرف ما اذا كانت قد تضمنت واحدا أو اكثر من الاخطاء المنهجية التي مارسها معظم المستشرقين في حقل السيرة. وحينذاك فقط يمكن ان يكون الحكم اقرب إلى الصواب.

وسيحاول البحث ان يتجنب الدخول – قدر الامكان – في مناقشة التفاصيل والجزئيات أو حتى الرد أو المناقشة المتوازية مع كل مقولة قد تتضمن خطا ما. انما ينصب الاهتمام على تحديد الجذور المنهجية وتنفيذها على الموضوع من قبل (وات). وقد لا يستلزم كل شاهد مناقشة أو ردا ما دام ان مهمة هذا البحث ليست دراسة حقائق السيرة وانما مناهج التعامل معها[٥٢].

إن بمقدور المرء ان يتلمس عبر قراءته لكتاب (محمد في مكة) اثنتين من تلك الثغرات المنهجية التي تتردد في معطيات المستشرقين. تتمثل اولاهما في ذلك الانسياق وراء النزعة النقدية التي تبلغ على ايدي بعضهم حد النفي الكيفي للروايات أو اثارة الشكوك حول صحتها. وتتمثل ثانيتهما في اسقاط الرؤية والمواضعات المعاصرة ذات الطابع النسبي على الوقائع التاريخية الماضية ومحاولة تحكيم المنطق الوضعي واعتماده في تحليل مكونات تلك الوقائع وارتباطها وتفحص طبيعة نسيجها.

وثمة مأخذ آخر اقل ترددا في كتاب (وات) يقوم على فكرة رد بعض وقائع السيرة إلى اصول دينية سابقة يهودية ونصرانية فلنبدأ بالمسألة الاولى : المبالغة في النقد والنفي الكيفي واثارة الشكوك واعتماد الضعيف الشاذ ..

***

بعد استعراض اهم احداث السيرة بين ميلاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وزواجه بخديجة (رضي الله عنها) وتحليلها يقول (وات) " تلك هي الوقائع التي تهيمن على حياة محمد قبل زواجه من وجهة نظر المؤرخ بعض هذه الوقائع موضع جدل وهناك مع ذلك عدد كبير من الروايات التي يمكن تسميتها " بذات الطابع الفقهي " ولا شك انها ليست حقيقة بالمعنى الواقعي للمؤرخ لانها تحاول وصف وقائع يمكن نسبتها لفترات لاحقة من حياة محمد ولكنها تعني مع تلك

---

(٥٢) يمكن الرجوع في هذا المجال لكتاب للمؤلف بعنوان (دراسة في السيرة).

مغزى محمد بالنسبة للمسلمين والمؤمنين فهي بذل حقيقة بالنسبة اليهم وتكون ملحقا مناسبا لحياة نبيهم وربما يمكن اعتبارها كتعبير (لمن كان له عيون ترى) فرأى لو كان شاهدا لها ويكفي ان نذكر اشهر هذه القصص كما يرويها ابن اسحق "[٥٣].

ويورد وات نص روايتي (الملكين) و(وبحيرى الراهب) كما يرويها ابن اسحق ثم يعقب عليها بان القاريء يجد نفسه ازاء ارضية مهزوزة لوقائع هذا المدى الزمني الذي يبلغ ربع القرن بين الميلاد والزواج.

اولا : لأن بعض هذه الوقائع موضع جدل.

ثانيا : لأن هناك عددا كبيرا من الروايات يمكن تسميتها بذات الطابع الفقهي وهي ليست حقيقة بالمعنى الواقع للمؤرخ، وانما هي حقيقة فقط بالنسبة للمسلمين !!

ثالثا : لأن بعض الوقائع يمكن نسبتها لفترات لاحقة من حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) ولكنها سحبت إلى الوراء.

واذا كانت قصة (بحيرى الراهب) موضع جدل وقد تتعرض للاهتزاز امام النقد[٥٤] فان حادثة شق الصدر تستعصي على النفي لا لان مسلما[٥٥] واحمد[٥٦]. أخرجاها فحسب – فضلا عن ابن هشام[٥٧] وابن سعد[٥٨] والبلاذري[٥٩] وغيرهم من المؤرخين الاوائل – ولكن لكونها واقعة ترتبط بنسيج الظاهرة النبوية ذات الاصول الغيبية التي يصعب التعامل معها في اطار التحليل العقلي بمنظور تاريخي وها هنا فان حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يلتقي في نسيجها : المغيب بالمنظور ويّتداخل تداخل السدى باللحمة. ونحن اما ان نقبل هذا البعد الذي يجعل من محمد (عليه الصلاة والسلام) (نبيا) ويرتب نتائج النبوة على اسبابها في التكوين النفسي واما ان نرفضه من الاساس وحينذاك يمكن حتى لظاهرة (الوحي) ان تستحيل إلى فعل منظور والا

---

(٥٣) محمد في مكة ، ص٦٦.

(٥٤) انظر : دراسة في السيرة للمؤلف ، ص٢٧١-٢٧٢ (الطبعة الخامسة المنقحة).

(٥٥) ١/١٠١-١٠٢.

(٥٦) ٣/١٢١.

(٥٧) تهذيب ، ص٣١-٣٣.

(٥٨) طبقات ، ١/١/٧٠-٧٤.

(٥٩) انساب الاشراف ، ١/٨١-٨٢.

الحقت " بالروايات ذات الطابع الفقهي التي هي ليست حقيقة بالمعنى الواقعي للمؤرخ وانما هي حقيقة بالنسبة للمسلمين "

ولن يستطيع احد بعد تجريد الواقعة التاريخية من بعدها الواقعي الحقيقي الا ان يعتبرها غير تاريخية على الاطلاق !!

حتى اذا ما تزوج محمد (صلى الله عليه وسلم) وانجبت زوجته (رضي الله عنها) اولادهما السبعة المعروفين فاننا نجد انفسنا امام هذه الفرضية التي يطرحها (وات) : اذا كانت خديجة قد انجبت ولدا في كل سنة " فانها تكون في الثامنة والاربعين من عمرها عند ولادة الاخير ليس هذا مستحيلا ولكنه غريب يثير التعليق وهو من الامور القابلة لأن تصبح فيما بعد معجزة "[٦٠].

والمسألة في اساسها لا تقتضي هذا التعقيد فان خديجة (رضي الله عنها) قد تكون اقل من الاربعين عمرا لدى زواجها وقد تكون – فعلا – في الاربعين لأن الانجاب حتى الخمسين ليس مستحيلا. لكن (وات) يبني على هذه المسألة موقفا وهو : " اننا لا نعثر على أي تعليق بهذا الصدد في كل صفحات ابن هشام وابن سعد والطبري "[٦١]. فكأن هؤلاء المؤرخين لا يملكون أي حس نقدي كما انه يلمح بموقف آخر : ان هذا من الامور القابلة لأن تصبح فيما بعد معجزة وبالتالي فان اتباع الرسول أو الاجيال المسلمة عموما تمتلك الاستعداد السهل لتحويل كل ظاهرة بعيدة عن المألوف بدرجة أو اخرى إلى معجزة !!

عند بدء الدعوة يطرح (وات) هذا (المانشيت) العريض " يوجد كثير من عدم الاطمئنان حول الظروف التي صحبت دعوة محمد ومن الممكن اذا محصنا اقدم الروايات ان ننتهي إلى رسم صورة عامة جديرة بالثقة وان كانت مختلف التفاصيل ولاسيما التواريخ غير اكيدة "[٦٢].

لا بأس. فما دام يشير إلى امكانية رسم صورة عامة جديرة بالثقة فاذا يمكن ان نتقبل مبدئيا شكوكه حول " الظروف التي صحبت الدعوة و(التفاصيل) و(التواريخ).

ولكن هل نجح (وات) في بناء الصورة الجديرة بالثقة ؟!

---

(٦٠) محمد في مكة ، ص٧٣.

(٦١) نفسه.

(٦٢) نفسه ، ص٩٣.

يمكن ان تكون المسألة نسبية فهو بالمقارنة مع غيره من المستشرقين الذين درسوا السيرة بعد – ولا شك – اقدرهم على النجاح في هذه المهمة. ولكنه بالنسبة للمنظور الاسلامي الاكثر اصالة واتساعا لواقعة السيرة يبدو اسير حشد من الشكوك وتخرج الصورة من بين يديه وقد ازيل منها الكثير من مكوناتها الحقيقية الواقعية واضيف اليها – في الوقت نفسه – بعض ما لم يكن فيها أساساً !!

وفي قضية (الوحي) – علي سبيل المثال – " تعترضنا – يقول وات – صعوبة صغيرة فيما يتعلق بالتواريخ فالكلمات التي تختتم اول ما نزل من الوحي **{ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }** هي من الوحي السابق ويفسر المسلمون القول السابق بانه يعني (علم استعمال القلم) وليس لهذا من فائدة اذا كان محمد لا يعرف القراءة والكتابة ويبدو (ورقة بن نوفل) من بين الذين اتصل بهم محمد لسبب معرفته بكتب المسيحية المقدسة ولا شك ان المقطع القرآني حين ردده محمد قد ذكره بما هو مدين به لورقة.

" ومن المغري (!!) ان نفكر بان هذا كان نتيجة لملاحظة ورقة بصدد الناموس ولكن هذا يتطلب وحيا سابقا على مقطع **{ إقرأ }** ليغذي تلك الملاحظة ولهذا من الافضل الافتراض بان محمدا كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم اشياء كثيرة وقد تأثرت التعاليم الاسلامية اللاحقة كثيرا بافكار ورقة وهذا ما يعود إلى طرح مشكلة العلاقة بين الوحي الذي نزل على محمد والوحي السابق له "[٦٣].

وسنعرض فيما بعد لمسألة الاخذ عن ورقة وتأثر التعاليم الاسلامية اللاحقة (كثيرا بافكاره)!

ولكننا نود ان نشير هنا إلى دوامة (الشك) التي يثيرها (وات) في لحظات (الوحي) الاولى. ان المسألة واضحة وقد جرت بالشكل المعروف التالي الذي تحدثنا به عائشة (رضي الله عنها) ".. حبب اليه (صلى الله عليه وسلم) الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحدث فيه (يتعبد الليالي ذوات العدد) قبل ان ينزع إلى اهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ فقلت ما أنا بقاريء

---

(٦٣) نفسه ، ص٩٣.

قال فاخذني فغطني[٦٤] حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال : اقرأ فقلت ما أنا بقاريء فاخذني فغطني الثالثة ثم ارسلني فقال : **{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{٤}** فرجع بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[٦٥] يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة واخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى اتت به ورقة بن نوفل بن اسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرءا قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني من الانجيل ما شاء الله ان يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمي فقالت خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يا ابن اخي ماذا ترى ؟ فاخبره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي نزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعا ليتني حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو مخرجي هم ؟ قال نعم. لم يأت رجل يمثل ما جئت به الا عودي وان يدركني يومك انصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب ورقة ان توفى وفتر الوحي "[٦٦].

فأي وحي سابق هذا ؟ واية صلات مبكرة ومستمرة مع (ورقة) ؟ ان (وات) إذ يهدم جوانب من واقعة الوحي الاولى مما اجمع عليه المؤرخون والمحدّثون يعود فيفترض جوانب اخرى مما لم يشر اليه مؤرخ أو محدث ثم هو يكشف عن انسياقه وراء منهجه النقدي المتشكك بعبارة " من المغري ان نفكر ". كما انه يمارس نوعا من المبالغة أو التعميم بعبارة " وقد تأثرت التعاليم الاسلامية اللاحقة كثيرا بافكار (ورقة). " دون ان يبين هذا التأثير أو ادلته على وجه التحديد.

***

(٦٤) أي ضمني وعصرني.

(٦٥) أي رجع بالآيات أو القصة.

(٦٦) البخاري : تجريد ١/٦-٧ ، (طبعة سنة ١٩٣١م).

وقد يتمخض الشك في الرواية لدى (وات) من خلال المعطيات الزمنية التالية التي تحدث نوعا من الانفاق العرضي بين تفاصيل الرواية وبين ما حدث فيما بعد وقد يطاح بالرواية نتيجة هذا الاتفاق الذي يرى فيه (وات) قصدا متعمدا لتحقيق مصلحة أو تمجيد شخصية أو تنفيذ دعاية لهذه الشخصية أو تلك.

فمثلا " لما كان النبل يقوم مبدئيا في الاسلام على الاخلاص لقضية الامة الاسلامية' فقد استغل المسلمون حقوق اجدادهم في النبل والكرامة ولهذا يجب معالجة اخبار المسلمين الاول بحذر فاذا ما وجدنا ان احفاد شخص ما أو المعجبين به يعلنون انه كان بين المسلمين العشرة الاوائل فمن الحذر الافتراض انه كان على الاغلب الخامس والثلاثين بينهم "[٦٧] ومثلا قول الطبري " انه بعد هؤلاء الثلاثة الذين كانوا اول من انتمى للاسلام يأتي عدد مهم من المسلمين الذين جاء بهم ابو بكر موضع شك لأن هؤلاء الرجال المذكورين هم في الحقيقة الخمسة الذين اصبحوا القادة مع علي حين وفاة عمر فقد عينهم لتأمين انتخاب الخلفية (في مسألة الستة الشورى المعروفة) وان من الصعب القول بان الخمسة انفسهم قد جاءوا معا إلى محمد قبل عشرين سنة عند بدء الاسلام واسماؤهم هي : عثمان بن عفان ، الزبير بن العوام ، عبد الرحمن بن عوف ، سعد بن ابي وقاص ، طلحة بن عبيد الله "[٦٨].

ألا يجوز ان يكون اختبار عمر (رضي الله عنه) لهؤلاء الرجال الستة ، كي ينتخبوا من بينهم الخليفة التالي ، كونهم اول من اسلم بعد ابي بكر نفسه ، فاكتسبوا بذلك ليس مكانة في قلوب المسلمين وشرفا في الاسلام فحسب ، ولكن خبرة وادراكا تمكنانهم من قيادة دولة اصبحت تمد ظلها على مساحات واسعة من العالم القديم. أيكفي هذا التطابق الذي ربما يكون متعمدا ، لكي نضع الرواية وشبيهاتها موضع الشك ، ونضحي بها ؟

عبر هذا السياق من الشك أو النفي ، يمكن ان نجد افتراضات اخرى بطرحها (وات) يشكك من خلالها ، أو ينفي ، روايات ووقائع (قبلية) اعتقد ان ذكرها أو تدوينها فيما بعد يحقق مصلحة أو دعاية لهذه الفئة أو تلك أو لهذه الاسرة أو تلك.

---

(٦٧) محمد في مكة ، ص١٤٤.

(٦٨) نفسه ، ص ١٤٥–١٤٦.

فمثلا يمكن " ان نفرض ان حماية مطعم بن عدي زعيم بني نوفل ، لمحمد ، اثر عودته من الطائف ، كان ببعض الشروط ، وان نجد حديثا عن ذلك في المصادر وليس ذلك مدهشا لأن القصة تروى لتمجيد نوفل ، ثم اهملت فيما بعد لانها تسيء لبني هاشم ، ولهذا لا يذكرها ابن اسحق " بينما يدخلها ابن هشام "[٦٩] ومثلا " ان عروة كان ينتمي لبيئة سياسية في الدولة الاسلامية وهي الحزب الحاكم ايام محمد المؤلف من الثلاثي ابي بكر ، عمر ، وأبي عبيدة (!!) ثم حزب عائشة ، طلحة والزبير ، الذي عارض عليا سنة (٣٦هـ) ومعاوية معا، ثم الحزب المسؤول عن الثورة ضد الامويين من سنة (٦٢-٧٢هـ) (وليست هذه الجماعات متماثلة بل يوجد بينها نوع من الاستمرار) وليس من المستغرب اذن ان نجد بين المواد التي رواها عروة عناصر تجعل قبائل امية هي المسؤولة عن معارضة محمد وابي بكر وتظهرها بمظهر سيء ، ومن ذلك شكاوي محمد من مسلك بني عبد مناف نحوه ، وقوائم المعارضين وفظاظة ابي جهل ولجاجته للقتال "[٧٠].

ومثلا " يجب ان نتذكر ان هناك من حاول التقليل من اهمية الانتصارات الاولية التي حازها محمد (في المرحلة المكية) لأن احفاد الذين تبعوه لفترة من الزمن ثم تركوه لا يودون ان تذكر هذه الامور "[٧١].

ومثلا " يهمنا ان نذكر ان عروة (الاخباري المعروف) كان ينتمي لعائلة الزبير المعادي حينئذ لعائلة امية وان روايته العائلية تسعى للمبالغة في الاضطهاد وتأثيره على مجرى الحوادث' اعتمادا على ان قبيلة امية كانت إلى جانب المعارضة لمحمد "[٧٢].

وسنتكلم عن موقف (وات) من مسألة الاضطهاد القرشي بعد قليل ، والمهم انه ليس عروة وحده الذي تحدث عن وقائع الاضطهاد لكي نشكك في كونها مبالغا فيها نكاية ببني امية ، وانما غيره من الاخباريين والمؤرخين الذين لم تكن لهم صلة مباشرة بهذه العائلة أو تلك !!

ودور العباس عم النبي (صلى الله عليه وسلم) في بيعة العقبة الكبرى معروف كما ان دوره في فتح مكة أيضاً – معروف.

---

(٦٩) نفسه ، ص ٢٢٢.

(٧٠) نفسه ، ص٢٦٧.

(٧١) نفسه ، ص١٧١.

(٧٢) نفسه ، ص٢٣١.

ومعروف أيضاً انه لم يقف يوما بمواجهة الدعوة ، أو يلحق بها المتاعب ، على الرغم من وثنيته ، خلافا لما صدر عن اخيه ابي لهب ، حتى ليمكن اعتبار العباس احد مستشاري الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحماته اسوة بعمه المتوفى ابي طالب ، ولا ندري مدى صحة الرواية التي تقول انه اسلم في فترة مبكرة وانه اختار ان يظل في مكة لتأدية مهامه في خدمة الدعوة من هناك مستندا إلى مكانته العائلية.

ومهما يكن من امر فان (وات) يرى ان ينفي وجوده في بيعة العقبة بالصيغة القاطعة التالية " يجب رفض الحادث الذي وقع للعباس على انه اختراع لاحق لاخفاء المعاملة المشينة التي لحقت بمحمد على يد بني هاشم في ذلك الوقت ، كان محمد عند عودته من الطائف في حماية سيد قبيلة نوفل ، اما القول بصحة الحادث لأن العباس يتكلم فيه ككافر فلا اساس له "[٧٣]. ويمضي (وات) إلى الاستنتاج التالي " كان الشرك في نظر المعارضين (في نهاية القرن الاول الاسلامي) اقل من العار ، اما الرواية المنسوبة لوهب بن منبه والتي حفظت على ورق البردي فهي تميل إلى تأكيد الرأي الذي تقدمنا به سابقا. يمدح العباس محمدا في هذه الرواية. ثم يأذن محمد لاحد المدنيين بالرد على العباس ومؤاخذته مظهرا له انهم يحسنون الظن بمحمد اكثر منه ، ونشعر اننا امام رد على دعاية العباسيين ، والافتراض الذي يبعث على الرضا هو ان زيارة العباس للعقبة اختراع محض استخدمته الدعاية العباسية "[٧٤].

***

– ٣ –

ومسألة اضطهاد الزعامة الوثنية للمسلمين معروفة تماما. ومتواترة إلى الحد الذي تغدو معه محاولة اثباتها عملا لا مسوغ له.

لكن (وات) يشك في انها كانت بالعنف الذي تشير اليه المصادر ، وينفي ان تكون (بالشدة) التي يعرفها الناس جيلا بعد جيل. ويثير الشك حول ما يعده مبالغة في تصوير الموقف. ويسعى لوضع لمساته على الوقائع كي تميل اكثر إلى الاعتدال فهو يقول " لا شك ان المصادر حين تتحدث عن فتنة المسلمين انما تشير لمثل اعمال ابي جهل ، وهي ليست مع ذلك فتنة قاسية ، يتأكد ذلك اذا ما فحصنا بدقة سير ابن هشام والطبري وابن سعد ، لأن ما يذكر

---

(٧٣) نفسه ، ص٢٣٢.

(٧٤) نفسه ، ص٢٣٢–٢٣٣.

فيها يتحدث بلا شك عن افظع الشواهد وكل شيء يدعو إلى اقناعنا بان الاضطهاد كان خفيفا ومن الممكن ان المبالغة في الاضطهاد نشأت من محاولة نفي تهمة الارتداد عن الدين عن شخص من الاشخاص وتشهد الوثائق التي لدينا على مختلف مظاهر المعارضة المذكورة عن ابن اسحق فقد شتم محمد وتعرض لإهانات بسيطة كان تجمع اوساخ جيرانه امام منزله ، وربما زاد الازعاج بعد وفاة ابي طالب. ومن الممكن ان يكون انخفاض رأسمال ابي بكر من (٤٠٠٠٠ درهم إلى ٥٠٠٠) بين اعتناق الاسلام والهجرة سببه الضغط الاقتصادي الذي كان يلوح به ابو جهل وليس شراء العبيد كما يقول ابن سعد لأن ثمن العبد لم يكن يتجاوز الـ (٤٠٠ درهم) تقريبا ، واشهر الامثلة على التعذيب الجسدي ما نزل بالعبيد كبلال وعامر بن فهيرة ، كذلك رفض العاص بن وائل ان يسدد دينا للخباب بن الارت ، ويمكن ان نذكر نوعا رابعا من الاضطهاد وهو الضغط الذي يقوم به الآباء والاعمام والاخوة على افراد عائلاتهم أو قبائلهم "[٧٥].

ويخلص (وات) إلى النتيجة التالية " كان اضطهاد المسلمين اذن خفيفا لأن نظام الحماية في مكة – حماية القبائل لأفرادها – كان يمنع من ان يؤذى المسلم على يد فرد من قبيلة اخرى حتى لو كانت قبيلة المسلم لا تميل إلى الاسلام ، لأن الامتناع عن نصرة العشير في نزاعه مع الاخر يعد مساسا بشرف القبيلة ولهذا اقتصر الاضطهاد على :

١. حالات لا تمس علاقات القبائل حين يكون المضطهدون في القبيلة نفسها أو حين تكون الضحية لا تحميها اية قبيلة.
٢. اعمال غير مذكورة في شريعة الشرف التقليدية كالاجراءات الاقتصادية والشتائم اللفظية التي لا تمس الا الفرد وليس القبيلة.

وقد كان هذا الاضطهاد المحدود كافيا لتنشيط الاسلام الوليد ولكنه لم يستطع رد أي مؤمن عن دينه "[٧٦].

والحديث عن عنف الاضطهاد يطول ، ولن يتسع المجال سوى لطرح اشارات فحسب عن بعض ما كان يجري بين المسلمين وخصومهم يتبين من خلالها ان الاضطهاد لم يكن (خفيفا) كما ذهب (وات).

---

(٧٥) نفسه ، ص١٩٠-١٩١.

(٧٦) نفسه ، ص١٩٢.

كانت كل قبيلة تثب على من فيها من المسلمين ، احرارا وعبيدا ، فتحبسهم وتعذبهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي ينصب عليه ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم. وقد روى مجاهد ان المستضعفين من المسلمين البسوا دروع الحديد وصبروا في الشمس حتى بلغ الجهد منهم(٧٧).

وكان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، اذا حميت الظهيرة بعذبونهم في رمضاء مكة ، فيمر بهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول : صبراً آل ياسر موعدكم الجنة !! وقتلت امه وهي تأبى الا الاسلام ، ويقال بانها اغلظت لابي جهل في القول فطعنها في بطنها. وكان عمار يعذب حتى لا يدري ما يقول(٧٨) وجيء بخباب بن الارت فجعلوا يلصقون ظهره بالارض على الرضف حتى ذهب ماء متنه ويقول خباب نفسه : لقد رأيتني يوما وقد اوقدوا لي نارا ثم سلقوني فيها ، ثم وضع رجل رجله على صدري فما أتيت الارض الا بظهري ، ولولا اني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " لا يتمنين احدكم الموت لتمنيته !! "(٧٩).

* * *

وقد بلغ من شدة الاضطهاد ان بعض المسلمين قد تضعضعوا امام المحنة ولم يطيقوا تحمل الاذى والاضطهاد ، وانهم ابدوا شكهم في نصر الله الموعود للمسلمين فنزلت الآيات (١١-١٥) من سورة الحج تحمل على هذا النوع من الناس باسلوب عام حملة لاذعة :

{ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ }(٨٠).

عن سعيد بن جبير قال : قلت لعبد الله بن عباس : اكان المشركون يبلغون من اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال نعم: والله ان كانوا ليضربون احدهم ويجيعونه ويعطشونه وما يقدر ان يستوي جالسا من شدة الضرب الذي نزل به(٨١).

---

(٧٧) البلاذري : أنساب ، ١٥٨/١.

(٧٨) نفسه ، ص ١٥٨/١-١٥٩.

(٧٩) نفسه ، ١٧٨/١.

(٨٠) دروزة : سيرة الرسول ، ٢٨٣/١-٢٨٤.

(٨١) ابن هشام : تهذيب ص٧٢ ، البلاذري : انساب ، ١٩٧/١.

ولعل (وات) كان يمهد بوجهة نظرة تلك (لنفي) آخر لواحدة من وقائع السيرة المكية المعروفة تماما : ان هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت بسبب الاضطهاد. لكي يطرح بدلا من ذلك شكه في هذا السبب ويقدم بديلا عنه : محاولة الرسول (صلى الله عليه وسلم) تفادي انشقاقا كاد يقسم المسلمين حزبين !!

يضطرب (وات) في تحليل اسباب الهجرة إلى الحبشة وبقاء المسلمين هناك ردحا طويلا بين خمسة اسباب اولها الهروب من الاضطهاد وثانيها البعد عن خطر الارتداد وثالثها ممارسة النشاط التجاري ورابعها السعي للحصول على مساعدة حربية من الاحباش ، ثم يشكك في جدوى الاعتماد على هذه الاسباب ويقول " من الصعب مقاومة الفكرة القائلة بوجوب الاطمئنان إلى السبب الخامس وهو انه نشأ انقسام قوي في الرأي داخل امة الاسلام الناشئة "[٨٢] وفي مكان سابق كان (وات) قد قال " يبدو ان اقامة خالد بن سعيد الطويلة في الحبشة تشير إلى انه كان على خلاف مع محمد في سياسته وانه لم يكن يوافق على التوجيه السياسي المتزايد للاسلام ، ولا على اهمية الدور السياسي لمحمد بسبب نبوته' ولو ان خالدا اهتم بالنواحي السياسية للرسالة لدفن خلافه مع محمد وعاد إلى مكة قبل السنة السابعة للهجرة "[٨٣].

يستنتج (وات) من هذه الاخبار القليلة التي ساقها حدوث خلاف في الرأي بين المسلمين ، وخاصة مع ابي بكر الذي كانت له مكانة قوية عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ويرى ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) اوعز لمخالفي ابي بكر بالهجرة إلى الحبشة تفاديا للاخطار التي قد تنجم عن هذا الخلاف ، غير ان الادلة التي يسوقها (وات) ليست قوية ، فان بعض من هاجر إلى الحبشة كعثمان وطلحة كانوا من اصحاب ابي بكر. كما ان اختفاء اسماء بعض المسلمين الاول المهاجرين وعدم لعبهم دورا رئيسيا في السياسة فيما بعد ، وخاصة في عهد ابي بكر ، لا يمكن ان يعزى إلى خلافهم معه فقط بل قد يرجع إلى انشغالهم بامور اخرى في الحياة ، والواقع ان أبا بكر استعان بكثير ممن اسلم عند فتح مكة أو بعدها ، وباولاد كثير ممن قاوم الاسلام ، فلو اهمل ابو بكر رجلا لماضيه لكان الاجدر به ان يهمل هؤلاء ولا يسلمهم قيادة الجيوش الاسلامية التي احسنوا قيادتها. والواقع ان الآيات القرآنية[٨٤] توحي بان دافع الهجرة هو الاضطهاد الشديد الذي وقع على المسلمين والمحاولات التي بذلها المشركون

---

(٨٢) محمد في مكة ، ص١٨٢-١٨٩.

(٨٣) نفسه ، ص١٦٢.

(٨٤) أنظر : (العنكبوت ١-٢٣) ، (البروج ١٠) ، (القصص ٥٧) ، (الزمر ١٠) ، (النحل ٤١، ١١٠).

لفتنتهم ، وانها هي التي دفعت الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الايعاز بالهجرة[٨٥] ، الامر الذي كاد ان يدفع ابا بكر نفسه إلى الهجرة لولا ان أجاره احد الزعماء[٨٦].

***

وحتى في المسائل الحاسمة التي لا تقبل مداورة ولا التواء ، يحاول (وات) ان يقتحم (بشكّه) و(نفيه الكيفي) جدار الوقائع لكي يزرع هناك افتراضاته وتحليلاته.

إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يهاجم يوما عبادة الاصنام في الكعبة ، وانما انصب هجومه على عبادة الاصنام القابعة في المعابد الكائنة في ضواحي مكة. ولذا فان معارضة مكة للاسلام لم يكن سببها الاساسي " الخوف من انه اذا دان اهل مكة بالاسلام وتركوا الالحاد كف البدو عن زيارة الكعبة وحل الخراب بذلك في تجارة مكة ، وهذا السبب غير مرض ، فسوف نحاول عبثا العثور في القرآن على أي اثر لمهاجمة عبادة الاصنام في الكعبة. ولقد رأينا ان الهجوم على عبادة الاصنام كان في المعابد الكائنة في ضواحي مكة ولم يكن لهذه المعابد اهمية تجعل التخلي عنها يهدد بانهيار التجارة المكية عامة " ويخلص(وات) إلى القول بان " فتح مكة لم يغير سوى الميزات الثانوية "[٨٧].

لقد كانت دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) منذ لحظات (اعلانها) الاولى وحتى دخول مكة وتحطيم الاصنام ، صيحة متواصلة ضد الوثنية وصراعا مكشوفا ضد الاصنام ايا كانت في مكة أو خارجها.

إن هذا التجزيء الذي يمارسه (وات) اسوة بكثير من المستشرقين مرفوض تاريخيا وعقيديا فالحركة الاسلامية حركة توحيد مطلق ينفي منذ اللحظة الاولى أي توجه وثني ، وقد ادركت الزعامة القرشية هذا جيدا ، ولذا فانها كانت مستعدة للتنازل عن أي شيء ، لمنح الرسول (صلى الله عليه وسلم) كل ما يريده الا هذه : شهادة **(ان لا اله الا الله)** وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المقابل مستعدا ان يدخل في حوار مع الزعامة الوثنية في كل شيء الا في هذه : شهادة ان لا اله الا الله وما تعنيه بالضرورة من رفض مطلق للوثنية أو عبادة الاصنام.

---

(٨٥) د. صالح احمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، ٣٦٨/١.

(٨٦) البلاذري : انساب ، ٢٠٥/١-٢٠٦.

(٨٧) محمد في مكة ، ص٢١٣-٢١٤.

ولا يدري المرء ، اذا اخذ بوجهة نظر (وات) اين يذهب برواية البلاذري التي يشير فيها إلى اشتداد معارضة قريش للدعوة بعد تصاعد الحملات الشديدة التي راح الرسول صلى الله عليه وسلم يشنها ضد آلهتهم واصنامهم[٨٨] ولا اين يذهب برواية ابن هشام[٨٩] والطبري[٩٠] التي تذكر ان المشركين أخذوا – يوما بمجامع – رداء الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقالوا له : انت الذي تقول كذا وكذا في عيب آلهتنا ودیننا ؟ فما كان جوابه الا ان قال لهم " نعم انا الذي اقول ذلك " !! ولا برواية ابن هشام التي تتحدث عن ذلك الاجتماع الذي عقده زعماء قريش وبعثوا إلى الرسول ليكلموه. وقالوا له : انا والله ما نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه مثل ما ادخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة. فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا. فاجابهم الرسول : " ما جئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني اليكم رسولا. فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه علي اصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم "[٩١].

ولا يدري المرء كذلك اين يذهب برواية ابن سعد التي تقول : ان وفداً من زعماء قريش قدموا إلى ابي طالب ليلتمسوا اليه ان يكف ابن اخيه ، فاستدعاه وقال له " يا ابن اخي هؤلاء عمومتك واشراف قومك وقد ارادوا ان ينصفوك فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " قولوا اسمع " !! قالوا : تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك ، قال ابو طالب : قد انصفك القوم فاقبل منهم ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أرأيتم ان اعطيتكم هذه هل انتم معطي كلمة ان انتم تكلّمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم " ؟ فقال ابو جهل : ان هذه كلمة مربحة ، نعم وابيك لنقولنها وعشر امثالها !! فقال الرسول " قولوا **(لا اله الا الله)** فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون : اصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد[٩٢].

---

(٨٨) أنساب ، ١/١١٥-١١٦.

(٨٩) تهذيب ، ص٥٧-٦٠.

(٩٠) تاريخ ، ٢/٣٣٢-٣٣٣.

(٩١) تهذيب ، ص٦٤-٦٧.

(٩٢) طبقات ، ١/١/١٣٥.

ومن عجب ان (وات) يضع يده في اكثر من موضع من كتابه على احدى الحقائق الاساسية للحركة الاسلامية : ان التغيير الديني يتمخض بالضرورةعن تغييرات اجتماعية واقتصادية وسياسية (وسنتناول هذه المسألة فيما بعد) وكان يجب عليه من اجل ان يكون منطقيا مع هذه القناعة ان يؤكد حقيقة التغيير الشامل الذي ينتظر مكة على يد الدعوة الجديدة ، لكنه يتجه وجهة معاكسة تماما فيطرح مقولته تلك : " ان فتح مكة لم يغير سوى الميزات الثانوية ".

وثمة فرق بطبيعة الحال بين الاعتماد على نظرية الاسباب الاقتصادية التي يرفضها (وات) في تفسير تخوف المكيين من الاسلام(٩٣). وبين ان الدعوة الاسلامية جاءت لكي تقلب مواضعات الحياة المكية ، بما فيها الاقتصادية ، رأسا على عقب.

وحول الرواية المعروفة التي يوردها الطبري وابن هشام وغيرهما والتي تتحدث عن اجتماع الزعامة القرشية لاتخاذ موقف نهائي من الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبيل هجرته إلى المدينة يثير (وات) شكاً جديداً : ان النية لم تنعقد على قتل محمد ، ويستبدل بذلك – كعادته – افتراضا يراه وهو ان محمدا ربما يكون قد رجم في مكة ذاتها بعد الاجتماع وهو يطرح المسألة بالشكل التالي " ليس هناك داع للشك بان هذا الاجتماع قد عقد ، وان الحاضرين ادركوا ان محمدا يهيء مشاريع معادية لهم ، كما يقول ابن اسحق ، وتوضح الحوادث التي وقعت فيما بعد بان النية لم تنعقد على قتل محمد ، لأن الاتفاق على ذلك لن يكون بالاجتماع كما تؤكده المصادر ، ولربما كان وقوع الخطر يهدد محمدا واتباعه برحيل محمد ، ومن الصعب التاكد من طبيعة الخطر الذي كان يهدد محمدا واتباعه ، فلقد اضيفت اشياء كثيرة على قصة الهجرة لتجميلها، حتى ان المصادر الاولى نفسها لم تخل من الاضافات ولا يستبعد ان يكون محمد قد رجم في مكة ذاتها بعد الاجتماع "(٩٤).

– ٤ –

إن (وات) الذي يعتمد – احيانا – اثارة الشك في الواقعة التاريخية ، أو نفيها اذا اقتضى الامر، يسعى ، بالاتجاه النقدي المبالغ فيه نفسه ، إلى ما يقابل هذا ولا يقل عنه سوءا: افتراض وقائع أو استنتاجات معينة قد لا تدعمها حقائق السيرة ووقائعها بل انه يؤكد صدق رواية

---

(٩٣) محمد في مكة ، ص٢١٤.

(٩٤) نفسه ، ص٢٣٧.

ضعيفة أو واقعة مدخولة ليس لها ما يؤيدها في حالة عرضها على التيار العام المتوحد لتلك الحقائق والوقائع.

إنه اذا كان في الحالة الاولى يشكك فيما هو اقرب إلى الصدق ، فانه في الحالة الثانية يصدق ما هو اقرب إلى الكذب .. والموقفان في حقيقة الامر وجهان لعملة واحدة هي عملة النقد الذي يتجاوز حده الايجابي البناء إلى الهدم والنفي والتشكيك.

إنه يفترض – مثلا – ان الآية التي تندد برفض السجود عند تلاوة القرآن(٩٥) انما هي بادرة لبعض المعارضة في صفوف المؤمنين ، أو انها نوع من الاتداد عن الدين وهو يستعمل هذه العبارة الافتراضية " ولربما تخيلنا ان الآية يمكن ان تكون تلميحا إلى آخره "(٩٦).

كما يفترض ان " تجربة محمد في نخلة ، عند عودته من الطائف(٩٧) ، والتي هدأت من انحطاطه العصبي ، مرحلة في حرمانه الثقة بالمجتمع الانساني "(٩٨).

ولا داعي لتأكيد ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) ما فقد الثقة يوما بالمجتمع الانساني ولا عانى من أي انحطاط عصبي ، وانما طرح قولته المعروفة مخاطبا الله (سبحانه وتعالى) (ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي) والتي تتضمن معنى التماسك النفسي ازاء الاحداث ، والثقة المطلقة بعون الله والاستعداد المتحدي لمواصلة الطريق.

وعن سودة بنت زمعة زوجة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الثانية بعد خديجة ، يقول (وات) " نستطيع ان نفترض ان صلاتها بمحّمد كانت صلاة خادم بمخدومه "(٩٩) كيف ؟ لا احد يدري. وما هي الوقائع التي تؤكد هذا التصور المظلم ؟ لا احد يدري كذلك. وهو يفترض ان

---

(٩٥) يشير بذلك إلى الآية ٢١ من سورة الانشقاق ، **(واذا قرئ القران لا يسجدون)**.

(٩٦) نفسه ، ص٢١١.

(٩٧) يشير وات بذلك إلى الآيات القرانية التي تتحدث عن سماع الجن للقران الكريم في سورة الاحقاف **{ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ{٢٩} قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ{٣٠} يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{٣١} وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٣٢}** ، انظر الآيات ٢٩–٣٢ سورة الاحقاف.

(٩٨) محمد في مكة ، ص٢١٧.

(٩٩) نفسه.

استدعاء محمد (صلى الله عليه وسلم) للمهاجرين من الحبشة في السنة السابعة للهجرة كان بسبب رغبته في تقوية مركزة بالاعتماد على تأييد تلك الجماعة الصغيرة[١٠٠].

والافتراضات كثيرة ، والاعتماد على الضعيف الشاذ منبث هنا وهناك ولن يتسع المجال لمناقشتها أو حتى لاستعراضها. ولكننا نريد ان نقف قليلا عند واحدة منها نظرا لخطورتها البالغة، ولكونها تمثل (نموذجا) واضحا لواحد من الاخطاء المنهجية التي يعاني منها البحث الاستشراقي : الافتراض ، وتبني الضعيف الشاذ ومحاولة ترصيعه وترصينه بعبارات التوثيق والتأكيد ، بخلاف الروايات والوقائع التي يسعى إلى التشكيك بها ، أو نفيها ، حيث يحاول هدمها بعبارات التضعيف والتشكيك كما رأينا.

يقول (وات) – ولنلاحظ صيغ التاكيد التي يبثها في عباراته – " نلاحظ واقعتين نستطيع ان نعدهما اكيدتين ، اولاً رتل محمد في وقت من الاوقات الآيات التي اوحى بها الشيطان على انها جزء من القرآن لأنه لا يمكن ان تكون القصة قد اخترعها مسلمون فيما بعد أو دسها غير المسلمين. ثم اعلن محمد فيما بعد ان هذه الآيات يجب الاتعد جزءا من القرآن ويجب استبدال آيات بها تختلف عنها كثيرا في مضمونها. والروايات الاولى لا تحدد الوقت الذي حدث فيه ذلك' والاقرب ، ان يكون ذلك قد وقع بعد بضعة اسابيع أو اشهر ، وهناك واقعة ثالثة أو مجموعة وقائع نستطيع ان نكون واثقين منها. وهي انه كان يجب على محمد ومعاصريه المكيين ان يشير في القرآن للآلهة اللات التي كانت معبودة الطائف ، والعزى المعبودة في نخلة بالقرب من مكة ، ومناة التي كان معبدها بين مكة والمدينة .. ما تعنيه اذن الآيات الابليسية ان الاحتفالات مقبولة في المعابد الثلاثة حول مكة واما معنى الآيات التي تقول بان العبادة في هذه المعابد غير مقبولة فهي لا تحرم العبادة في الكعبة.

" ويجب ان نعترف بان الآيات التي صححت سورة النجم تمجد الكعبة على حساب المعابد الاخرى ، الا اذا افترضنا وجود آيات اخرى كانت تحرم ذلك ثم رفعت فيما بعد من القرآن، ولكن ليس لدينا أي سبب يمكن الاخذ به ، ومن المهم ان نتذكر بهذا الصدد ان هذه المعابد قد هدمت عند صعود نجم محمد".

" وهكذا فان قيمة الآيات الابليسية مهمة ، فهل اعترف محمد بصحتها لانه كان يهم كسب الانصار في المدينة والطائف وبين القبائل المجاورة ؟ هل كان يحاول التخفيف من تأثير

---

(١٠٠) نفسه ، ص١٨١.

الزعماء القرشيين المعارضين له باكتساب عدد كبير من الاتباع ؟ ذكر هذه المعابد دليل على ان نظرته اخذت في الاتساع (!!).

ويمضي (وات) إلى القول " ان نسخ الآيات (الابليسية) مرتبط بفشل التسوية (بين محمد وزعماء قريش) ولا شيء يسمح لنا بالاعتقاد ان محمدا قد استسلم لخداع المكيين ولكنه انتهى به الامر إلى ادراك ان الاعتراف ببنات الله (كما كانت تسمى الآلهة الثلاثة وغيرها) يعني انزال الله إلى مستواها. وعبادة الله في الكعبة لم تكن في الظاهر تختلف عن عبادته في نخلة والطائف وقديد. وهذا يعني ان محمدا لم يكن يختلف كثيرا عن كهانهم وانه لم يكن يرى نفسه مدعوا لأن يكون تأثيره اعظم من تأثيرهم ، ينتج عن ذلك أن الاصلاح الذي عمل له من كل قلبه لن يتحقق.

" وهكذا لم يرفض محمد عروض المكيين لاسباب زمنية بل لسبب ديني حقيقي. ليس لانه لم يثق بهم مثلا ، أو لانه لم يبق شيء من مطامحه الشخصية ، بل لأن الاعتراف بالهتهم يؤدي إلى فشل قضّيته والمهمة التي تلقاها من الله' ولا شك ان الوحي قد نبهه إلى ذلك ، كما انه من الممكن ان يكون قد شعر بخطئه بهذا الصدد قبل نزول الوحي "[١٠١].

ويخلص (وات) إلى تركيز المسألة بالشكل التالي " ولا شك ان محمدا قد نال نجاحا امام زعماء قريش ليهتموا بامره فظهرت المحاولات لحمله على الاعتراف بصورة أو اخرى بالعبادة في المعابد المجاورة ، وكان في اول الامر مستعدا لذلك بسبب المنافع المادية (!!) ولانه كان يشعر ان ذلك يساعده على تحقيق مهمته بسهولة ، ثم أدرك شيئا فشيئا عن طريق النصح الآلهي ان ذلك كان تسوية مميتة فاعد مشروعا لتحسين وسائله بالمحافظة على الحقيقة كما تظهر له ، فاعلن رفض الشرك بالفاظ شديدة تغلق الباب في وجه كل تسوية "[١٠٢].

إن هذه الواقعة المدخولة (التي تسمى أيضاً بحديث الغرانيق) والتي يفترض (وات) انها أكيدة ، تحمل عناصر تناقضها واضطرابها وتهافتها.

إنها تعني ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) يمكن ان يخطئ ، أو يتقبل الخطأ ، ولكن في ماذا ؟ في اشد الامور في دعوته وضوحا ، وصرامة وجدية ، واستعصاء على الغموض ، أو

---

(١٠١) محمد في مكة ، ص١٦٦-١٦٨.

(١٠٢) نفسه ، ص١٧٦-١٧٧.

الخطأ أو التنازل أو المساومة : التوحيد المطلق لله ، ورفض الوثنية رفضا جازما قاطعا لا يقبل مهادنه أو اعترافا.

إن (وات) نفسه يؤكد هذا المعنى ولكن في تسويغ النسخ الذي تعرض له الموقف وليس في نفي الواقعة نفسها أو التشكيك فيها كما كان يجب ان يكون ولا سيما بالنسبة لرجل يتميز بالمهارة في النفي والتشكيك بالاستناد إلى ما يمكن اعتباره ادلة مقارنة أو مقنعة !!

ثم ان (وات) الذي اعلن في مقدمته انه سيمتنع عن استعمال تعبير مثل " قال تعالى " أو " قال محمد " بل " يقول القرآن " يعتمد ها هنا صيغا وتعابير يخالف فيها عما اكده في مقدمته ويوحي للقاريء بان محمداً (صلى الله عليه وسلم) هو الذي يرتب آيات القرآن وفق ما تقتضيه الظروف !! فنحن نقرأ عبارات كهذه " اعلن محمد ان هذه الآيات لا يجب اعتبارها جزءا من القرآن ويجب استبدال آيات بها تختلف عنها في مضمونها " " كان يجب على محمد ان يشير في القرآن للآلهة اللات " " ان ذكر المعابد – في الايات الابليسية دليل على ان نظرته اخذت في الاتساع "!!

وهذا تناقض آخر. فان (وات) ما يلبث ان يبين خطأ هذا الموقف وتعارضه مع المهمة الاساسية التي تلقاها محمد عن الله وهي التوحيد .. وحتى على المستوى الشخصي فان الاعتراف بالآلهة كان سينزل بمحمد (صلى الله عليه وسلم) – كما يقرر وات – من مرتبة النبوة المتفردة إلى ان يكون مجرد كاهن من كهان العرب !! فاي اتساع هذا في النظرة من خلال اعتراف بالاصنام يقود إلى نتائج سلبية واضحة كهذه ؟

ولنرجع إلى رواية (الآيات الابليسية) أو قصة الغرانيق التي اوردها ابن سعد في طبقاته والطبري في تاريخه وبعض المفسرين. الا ان رواياتهم ، كما يقول ابن كثير في تفسيره " من طرق مرسلة كلها ، ولم ارها مسندة من وجه صحيح " !!

" واكثر هذه الروايات تفصيلا واقلها اغراقا في الخرافة والافتراء على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رواية ابن ابي حاتم (التي ينتهي سندها إلى ابن شهاب) قال : أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير اقررناه واصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر. وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد اشتد عليه ما ناله واصحابه من اذاهم وتكذيبهم ، واحزنه ضلالهم ، فكان يتمنى هداهم فلما انزل الله سورة النجم قال **{ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى{١٩} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى{٢٠}** ألقى الشيطان عندها كلمات فقال وانهن لهن الغرانيق العلى وان شفاعتهن

لهي التي ترتجى .. فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة ، وتباشروا بها وقالوا : ان محمدا قد رجع إلى دينه الاول ودين قومه ، فلما بلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك. فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود. فاما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير ايمان ولا يقين ، ولم يكن المسلمون سمعوا الذي القى الشيطان في مسامع المشركين. فاطمأنت انفسهم – أي المشركون – لما القى الشيطان في امنية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحدثهم به الشيطان ان رسول الله قد قرأها في السورة فسجدوا لتعظيمهم آلهتهم. ثم نسخ الله ما القى الشيطان واحكم آياته ، وحفظه من الفرية وقال : **{ وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ... الخ }** فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم على المسلمين واشتدوا عليهم.

" وهناك روايات اخرى اجرأ على الافتراء ، تنسب قولة الغرانيق تلك إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتعلل هذا برغبته – حاشاه– في مراضاة قريش ومهادنتها " **!!**

وروايات الحادثة جميعا مرفوضة منذ الوهلة الاولى. فهي فضلا عن مجافاتها لعصمة النبوة وحفظ الذكر من العبث والتحريف ، فان سياق السورة ذاته ينفيها نفيا قاطعا ، إذ انه يتصدى لتوهين عقيدة المشركين في هذه الآلهة واساطيرهم حولها ، فلا مجال لادخال هاتين العبارتين في سياق السورة بحال ، حتى على قول من قال : ان الشيطان القى بها في اسماع المشركين دون المسلمين ، فهؤلاء المشركون كانوا عربا يتذوقون لغتهم وحين يسمعون هاتين العبارتين المقحمتين ويسمعون بعدهما **{ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى{٢١} تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى{٢٢} إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى{٢٣}** ويسمعون بعد ذلك **{ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا}** ويسمعون قبله **{ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى }**. حين يسمعون السياق كله فانهم لا يسجدون مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأن الكلام لا يستقيم والثناء على آلهتم وتقرير ان الشفاعة

ترتجى لا يستقيم ، وهم لم يكونوا اغبياء كغباء الذين افتروا هذه الروايات التي تلقفها منهم المستشرقون مغرضين أو جاهلين "[١٠٣].

و(وات) لا يكتفي بافتراض صحة حديث الغرانيق هذا ، بل يوسع هذا الافتراض ، فيبني على عدد من الآيات التي تدعو إلى التوحيد ورفض الشرك ، من مثل **{قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }**[١٠٤] هذه النتيجة التي يطرحها بصيغة التأكيد " الاعتقاد بان محمدا عانى من اغراء التسوية مدة طويلة "[١٠٥].

ولا نريد ان نمضي في مناقشة هذا الاستنتاج كما لا نريد ان نعرض لافتراضات (وات) بصدد ظاهرة (الوحي)[١٠٦]. لأن هذا يخرج بنا عن دائرة (الاستشراق والسيرة) إلى مواقف الاستشراق من (القرآن الكريم) ولكننا – فقط – نلمح إلى افتراض اخر للرجل الذي حاول جهده ان يدرس السيرة باكبر قدر من الامانة والموضوعية والحيادية والاخلاص. فماذا تكون النتيجة ؟ " يجب (بهذا التاكيد الذي لم يمارسه وات تجاه العديد من الوقائع الصحيحة المؤكدة في السيرة) تفسير قول محمد **(ما اقرأ)** ؟ في رده على قول الملك **(اقرأ)** : (لا استطيع القراءة) أو (التلاوة) يتضح لنا ذلك من وجود رواية تقول (ما انا بقاريء) وفي التمييز عند ابن هشام (ما اقرأ) و(ماذا اقرأ) حيث التعبير الثاني لا يمكن ان يعني الا : (ماذا اتلو) ؟ وهذا هو المعنى الطبيعي لقوله (ما اقرأ ؟) ويبدو من المؤكد تقريبا (لاحظ كلمة من المؤكد) ان المفسرين التقليديين اللاحقين تجنبوا المعنى الطبيعي لهذه الكلمات ليجدوا اساسا للعقيدة التي تريد ان محمدا لم يكن يعرف الكتابة ، وهذا عنصر رئيسي للتدليل على طبيعة القرآن المعجزة ومحتوى رواية ابن شداد في تفسير الطبري يفترض ، اذا كان النص صحيحا ، ان (ما) بمعنى (ماذا) لانها مسبوقة بالواو "[١٠٧].

---

(١٠٣) سيد قطب : في ظلال القرآن ، جزء ٢٧ ، ص٦٣٤-٦٣٦، المجلد السابع ، ط٥ ، (دار احياء التراث العربي ، بيروت-١٩٦٧م).

(١٠٤) الانعام ، (آية ٧١).

(١٠٥) محمد في مكة ، ص١٧٤-١٧٥.

(١٠٦) انظر المرجع السابق ، ص٨٥-٨٧.

(١٠٧) نفسه ، ص٨٥-٨٦.

***

– ٥ –

ومن قبيل (الافتراضات) التي يزرعها (وات) في سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويلح عليها وكأنها جزء اساسي من حقائق السيرة ، أو هكذا يتوهم ويريد ان يجر القاريء المسلم معه إلى دائرة الوهم ، تلك المقولة الظنية التي رددها الجاهليون انفسهم من قبل وهي ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يتلقى (العلم) عن رجال من اهل الكتاب !! أو انه – على الاقل – تأثر بهم وتعلم منهم.

(لا شك) بهذا التعبير المناقض لشكية (وات) يطرح الرجل واحدة من مقولاته ، أو افتراضاته ، في الدائرة التي نحن بصددها " لا شك ان خديجة قد وقعت تحت تأثيره (أي ورقة بن نوفل الذي اعتنق المسيحية اخيرا) ويمكن ان يكون محمد قد اخذ شيئا من حماسه وآرائه "[١٠٨].

" وتشجيع ورقة مهم ، ليس هناك من سبب للشك (لاحظ العبارة) في صحة الجملة بصدد الناموس ، واستعمال اللفظ الذي لا يرد في القرآن بدلا من لفظ (التوراة) القرآني دليل على صحة القول. ان النص الذي يجمع بين محمد وورقة افضل من النص الذي يجعلهما لا يلتقيان .. وتعد كلمة (ناموس) عادة مشتقة من كلمة (Nomos) اليونانية ، وهي تعني اذن الشريعة أو الكتب المقدسة ، وهذا يتفق تماما مع ذكر موسى. وقد ابدى ورقة ملاحظة بعد ان اخذ محمد يتلقى الوحي وهي تعني ان ما نزل على محمد مماثل لكتب اليهود والمسيحيين المقدسة. كما ان محمدا سمع ما يوهمه بانه مؤسس امة ومشرع لها ، واذا كان محمد كما يبدو مترددا بطبعه (!!) فان هذا التشجيع باقامة بناء ضخم على تجاربه يرتدي اكبر اهمية لتطوره الداخلي "[١٠٩].

واذا كان (وات) في النصين السابقين يلمح فانه في النص التالي يصرح بابعاد العلاقة بين محمد (صلى الله عليه وسلم) وورقة بن نوفل " يبدو ورقة من بين الذين اتصل بهم محمد لسبب معرفته بكتب المسيحية المقدسة. ومن الافضل الافتراض (لاحظ التعبير) بان محمدا كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم اشياء كثيرة وقد تأثرت التعاليم الاسلامية اللاحقة

---

(١٠٨) نفسه ، ص٧٥.

(١٠٩) نفسه ، ص٩٢–٩٣.

كثيرا بافكار ورقة. وهذا ما يعود بنا إلى طرح مشكلة العلاقة بين الوحي الذي نزل على محمد والوحي السابق له "[١١٠].

وليس ثمة من داع لمناقشة هذه الافتراضات التخمينية فيكفي انها لم ترد لتأييدها آية رواية تاريخية على الاطلاق. ويكفي ان تكون افرازا لظنون جاهلية ما كانت بقادرة على تصور نزول وحي مستقل جديد من السماء. أو ظنون طائفية متعصبة تتشبث – لسبب مكشوف – بالتصور الجاهلي ذاته .. ويكفي انه ليس بمقدور احد على الاطلاق ان يعثر على رواية تاريخية أو شاهد واحد ينفي (أمية) الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويكفي كذلك ان هذه المقولة لا تعدو ان تكون نتاجا طبيعيا لمنهج افتراضي يحمل استعداده لطرح أي تصور قد يدور في ذهن هذا المؤرخ أو ذاك دون ان يكون له سند من التاريخ.

ويكفي ، قبل هذا وذاك ، ان القرآن الكريم ، ذلك المصدر اليقيني المتفرد ، قد نفى نفيا قاطعا ان يكون الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد اتصل أو تلقى تعاليمه الدينية من أي رجل على الاطلاق :

{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ }[١١١].

واذا كان هناك تشابه في علاج بعض المواضيع بين القرآن والكتب الدينية السابقة فلانها صدرت في الاصل جميعا عن مصدر واحد هو الله (سبحانه وتعالى) ولان كتاب الله جاء لكي يستكمل بناء كانت التوراة والانجيل قد بدأته من قبل :

{ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[١١٢].

{ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ }[١١٣].

---

(١١٠) نفسه ، ص٩٣.

(١١١) النحل ، (آية ١٠٣).

(١١٢) يونس ، (آية ٣٧).

(١١٣) (الانعام ٩٢) ، وانظر : (البقرة ٤١،٨٩،٩١،٩٧،١٠١)، (آل عمران ٣،٣٠،٨١)، (يوسف ١١١)، (الاحقاف ١٢،٣٠) ، (النساء ٤٧)، (المائدة ٤٦،٤٨) ، (فاطر ٣١).

ولكن يجب ان نتذكر أيضاً – ان في القرآن حشودا من المقاطع والآيات تصحح (تحريفات) التوراة والانجيل ، أو تعارضها ، أو تفندها. وتطرح حقائق جديدة تغاير بالكلية ما طرحته التوراة والاناجيل !!

إن (وات) من حيث لا يشعر القارئ احيانا ، يمارس تزييفا للسيرة قد لا يكون متعمداً. انه يخفف من الوانها العميقة المتميزة ، ويجرد جدلها ، أو حوارها ، في الداخل والخارج ، أي بين المسلمين انفسهم ، وبينهم وبين الخصوم ، من ابعاده (الدرامية) التي تمنحه الفاعلية والحيوية والعمق.

مثلا. انه يستنتج ان اضطهاد الزعامة الوثنية للمسلمين لم يكن عنيفا بالشكل الذي تصوره الروايات ، وان هجرتهم إلى الحبشة لم تكن بسبب العذاب والاضطهاد. وان قريشا لم تفكر يوما بقتل الرسول (صلى الله عليه وسلم). وان وحدة المسلمين الداخلية كانت تهتز بين الحين والحين بمحاولة الانشقاق تارة ، وبالعصيان الديني تارة اخرى. بل ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) دخل مرة في مساومة مع الوثنية. وفي أي شيء ؟ في اعز ما جاء به ، وأشده تمنعا على المساومة والتنازل : وحدانية الله المطلقة ورفض عبادة الاصنام أو الاعتراف بها بالحسم الذي يليق بجدية هذا الدين.

قد يسأل سائل : وما علاقة العمق اللوني لنسيج السيرة ، والبعد الدرامي لعلائقها المتنوعة ، بالبحث العلمي في التاريخ ؟!

والجواب واضح تماماً. ان البحث التاريخي العلمي الجاد يجب ان يحقق اكبر قدر من الاقتراب من صورة الواقعة التاريخية وصيغها .. ان يسعى لاستعادتها كما تخلفت وتلونت فعلا. ان يستعيد – مرة اخرى – معدلات تشكلها بالدرجة وبالنوع نفسهما قدر الامكان.

فاذا عجز البحث ، بدرجة أو اخرى عن تحقيق هذه الاستعادة سواء في صيغ الواقعة التاريخية أو طبيعة علاقتها الحوارية مع كافة الاطراف. اذا عجز عن وضع يده على ايقاعها بالدرجة نفسها التي كانت عليها. فان عجزه هذا لا يعدو ان يكون عجزا علميا أي عجزا في قدراته على البحث والتحليل والتوصّل إلى كشف النقاب عن الوقائع كما تشكلت وتخلقت فعلا. اللهم الا اذا كان هنالك هدف (مبيت) يسوق الباحث إلى موقع كهذا.

وقد ناقشنا في مكان آخر مقولات (وات) آنفة الذكر وبينا انها لا تقوم على أساس. ولكننا هنا بازاء شيء اكبر من التاريخ. اننا بازاء حركة عقيدية ونبوة. اننا بازاء دين شامل جاء لكي يغير العالم ، ويحل محل الاديان المحرفة السابقة ويقود البشرية إلى الصراط.

واذا كانت الوقائع التاريخية (الاعتيادية) تتحمل عبئا كهذا الذي يجري تحت ستار العلم والنقد ، والاكاديمية ، إلى آخره فان واقعة (النبوة) ترفض هذا العبث منذ اللحظة الاولى ..

فنحن ازاء دين قادم من السماء ، ونحن قبالة رجل مبعوث من الله (سبحانه وتعالى) ونحن ازاء تقابل بين الغيب والحضور التاريخي. فاما ان تقبل هذه الحقيقة ونستسلم لها ، فلا يكون حينئذ انشقاق ، ولا عصيان ، ولا مساومة ، من قبل اناس اختاروا بانفسهم ، في ظروف في غاية القسوة والعناد ، التسليم لكلمة الله ، وجعل حياتهم ومستقبلهم ، مجرد ادوات لتنفيذها وصيرورتها في العالم. أو ان نرفض هذه الحقيقة فلا تكون ابحاثنا – ابتداء – تعاملا مع سيرة نبي وحركة جماعة من المنتمين لدين قادم من السماء ولكنها افتراض ملفق يسعى إلى ان يخضع الواقعة للمقولات نفسها التي تعامل بها سائر الوقائع والاحداث.

إن (وات) يأخذ على اقرانه المستشرقين الحاحهم في النزعة النقدية ويحاول ان يضع ضوابط منهجية تشكم هذه النزعة من ان تتحول إلى عملية هدم اعتباطي يشبع الاهواء الذاتية ولا يقوم على اساس موضوعي وقد سبق ان مرت بنا عبارته في هذا الصدد " لقد اظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق اسوء الامور عن محمد ، وكلما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الوقائع ممكنا قبلوه ، ولا يكفي مع ذلك في ذكر فضائل محمد ان نكتفي بامانته وعزيمته اذا اردنا ان نفهم كل شيء عنه ، واذا اردنا ان نصحح الاغلاط المكتسبة من الماضي بصدده فيجب علينا في كل حالة لا يقوم الدليل القاطع على ضدها ، ان نتمسك بصلابة بصدقه ، وعلينا الا ننسى عندئذ أيضاً ان الدليل القاطع يتطلب لقبوله اكثر من كونه ممكنا وانه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه ، ولا يجب مناقشة نظريات المؤلفين الغربيين الذين افترضوا كذب محمد كنظريات وان كان يمكن النظر في الحجج التي يذكرونها للتدليل على كذبه "[١١٤].

ويجدر ان نشير كذلك إلى هجومه المرير على لامنس بسبب انسياقه وراء نزعته الهدمية وتسمية منهجه " بالطريقة العابثة في معالجة المصادر ". بل انه يقول عنه في مكان آخر بالحرف " ان افتراضه الشرير بان قوة مكة كانت تعتمد على جيش من العبيد السود لا اساس له "[١١٥].

---

(١١٤) محمد في مكة ، ص٩٤-٩٥.

(١١٥) نفسه ، ص٢٤٨.

ويشير إلى ان ملاحظات (تيودور نولدكه) في دراسته Die Tradtion uber das leben muhammeds "يمكن ان تصحح في اكثر من مسألة آراء لامنس المغالية "[١١٦].

وهو يأخذ على كايتاني في دراسته الواسعة (حوليات الاسلام) نزعته الشكوكية المبالغة ويقول " ليس من الصعب تصحيح مبالغاته في الشك "[١١٧]. ثم هو يطرح هذا المبدأ المنهجي (البنائي) في مجابهة النقد الهدمي الذي مارسه المستشرقون ازاء السيرة إلى الحد الذي اوصل لامنس " إلى استبعاد اخبار الفترة المكية " بكاملها !! على الرغم من ان كثيرا من العلماء اتفقوا على القول بانه مبالغ في ذلك كثيرا[١١٨] فهو يقول " يجب على الباحث اليوم بعد اطلاعه على نزعات المؤرخين الاوائل ومصادرهم ان يكون باستطاعته ان يحسب حساب التحريفات وان يقدم الوقائع بصورة امينة ، ويجب ان يقابل الاهتمام (بالتسوية المغرضة) في الرواية القديمة الاعتراف بصحة المادة عامة ، ولما كان عدد كبير من الاسئلة التي يهتم بها المؤرخ اواسط القرن العشرين لا يتأثر بتدخل (التلفيق المغرض) فليس هناك صعوبة في استخراج اجوبة على هذه الاسئلة من المصادر "[١١٩].

وهو يطرح هذا الافتراض " من الصعب مثلا القول بان روايات ابن سعد في الانساب اختلاق محض ، فمن ذا الذي تجشم مشقة اختلاق هذا الاطار المعقد وما هي الاسباب ؟ يضاف إلى ذلك انه اذا كنا نحن الذين لا نهتم بالانساب نعرف من اجدادنا اجدادهم حتى جيلين أو ثلاثة ، فما هو المدهش في ان يعرف حتى العرب الشغوفون بالانساب عن اجدادهم حتى ستة أو ثمانية أو عشرة اجيال ؟ لقد لقي جون فان اس طفلا يعرف خمسة عشر من اجداده "[١٢٠] وهو يصل عبر تحليله لقوائم المعارضين الوثنيين في مكة إلى هذا الاستنتاج المهم " يتأكد اذن ان المؤلفين الذين وصلتنا مؤلفاتهم كانوا يملكون مادة تاريخية صحيحة وقد استخدموها بذكاء "[١٢١].

---

(١١٦) نفسه ، المقدمة ، ص٩-١٠.

(١١٧) نفسه ، المقدمة ، ص٩.

(١١٨) نفسه.

(١١٩) نفسه ، المقدمة ، ص١٠-١١.

(١٢٠) نفسه ، المقدمة ، ص١١-١٢.

(١٢١) نفسه ، ص٢١٣.

ومع ذلك كله فان (وات) مارس هو الآخر ، وكما رأينا ، نوعاً من المبالغة في شكوكه، ونفيه الكيفي ، وافتراضاته ، ولا تكاد رواية من الروايات التي تتحدث عن العصر المكي تخرج من (مختبره) إلى ميدان القبول الا بصعوبة. ونجد عبارات نقدية كهذه تتصادى في كتابه " يبدو ذلك صحيحا وان سجل فيما بعد ليتفق مع افكار لاحقة "[١٢٢] "واذا صدقنا الروايات."[١٢٣] " واذا كانت قصص العروض من قبل زعماء قريش صحيحة "[١٢٤] " نستطيع – اذن – قبول الخطوط الكبرى للروايات التقليدية "[١٢٥] " تبدو مظاهر الصحة "[١٢٦] كما انه يكثر من إستخدام تعبير (ربما) الذي يضع الوقائع على حافة اليقين.

هذا في حالات (الايجاب) اما في حالات (السلب) فقد رأينا كيف مارس (وات) تشكيكا ونفيا للعديد من معطيات السيرة عبر عصرها المكي. ولكن – اذا اردنا الانصاف – ليس بالمبالغة المفجعة التي دفعت مستشرقا كلامنس إلى استبعاد اخبار الفترة المكية بكاملها !!

ذلك ان النزعة الشكوكية والنفي الكيفي قد يقودان – فعلا – إلى الغاء مساحات بكاملها من التاريخ ، والذي يحمل الاستعداد لنفي الجزئيات قد يصل بع الامر إلى نفي الكليات ان لم يكن ثمة ضوابط منهجية تقول له اين يجب عليه ان يقف واين يمكنه ان يمضي.

ولن يعني هذا ابدا ان يقف المؤرخ المسلم ، في المقابل ، وقفة استسلام وخضوع للرواية التاريخية ، وان يرفض اية صيغة من صيغ النقد والشك والافتراض والتصحيح.

ذلك ان منهجا (استسلاميا) كهذا يقود إلى الخطيئة نفسها التي تسوق اليها نزعات التشكيك المغرضة والنقد المبالغ فيه : تزييف الحقيقة التاريخية ، وتقديم دراسات عن التاريخ ، لا كما وقع فعلا أو قريبا مما تشكل فعلا ، بل كما يريد له هذا المؤرخ أو ذاك ان يكون[١٢٧].

إن نقد الرواية التاريخية ، مطلوب وهو ضرورة من الضرورات ، واننا يجب ان نتعلم هذا المبدأ الخطير من رجال (الحديث) ، كما يجب ان نذهب مع رجل مفكر كابن خلدون إلى

---

(١٢٢) نفسه ، ص١٦٣.

(١٢٣) نفسه.

(١٢٤) نفسه ، ص١٧٧.

(١٢٥) نفسه ، ص٢٣٢.

(١٢٦) نفسه ، ص١٦٦.

(١٢٧) عن الدعوة إلى ضرورة اعتماد منهج نقدي معتدل ازاء الرواية التاريخية انظر كتاب (فصول في المنهج والتحليل) ، للمؤلف وكتاب آخر بعنوان : (حول اعادة كتابة التاريخ الاسلامي).

آخر الطريق وهو ينعي على المؤرخين الذين سبقوه استسلامهم للرواية وتقبلهم حتى ما لا يمكن قبوله على الاطلاق.

لكن المبالغة في اعتماد (النقد) والافتراض ، والنفي ، للرواية ، أمور قد تقود الى الوجه الآخر للخطأ.

فاذا كنا في الاولى نستسلم لكل ما قيل ، فاننا هنا قد نرفض ونشكك بكل ما قيل. وفي الحالتين فان شبكة الوقائع التاريخية سوف تتعرض للتمزق وملامحها الاصلية ستؤول إلى الضياع.

***

(محمد في مكة)

٢ – اسقاط الرؤية العقلية المعاصرة على السيرة

– ١ –

هنا يكاد المستشرقون ان يلتقوا جميعا. ان هذا الخلل المنهجي الذي هو اشبه بالحتمية التي لا فِكاك منها للبحث الغربي، هو القاسم المشترك الاعظم لجل الابحاث والدراسات التي قدموها عن سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

إن مواضعات العقل الغربي ورواسبه الدينية جنبا إلى جنب مع نزوعه العلماني ومسلماته المادية ، ورؤيته الوضعية ، وانحساره على المنظور وانكماشه على المحسوس وردة فعله تجاه كل ما هو روحي أو غيبي ، واعتقاده الخاطئ بان تجاوز الواقع إلى ما وراءه سقوط في مظنة الخيال والمثالية والخرافة واللاعلمية.

بل ان غرور العقل الغربي ، وانتفاخه المتورم ، واعتقاده القدرة على فهم كل شيء وتحليل كل معضلة في دائرة ما يصطلح عليه بالعلوم الانسانية ومنها التاريخ.

هذه كلها تفعل فعلها في حقل الدراسة الاستشراقية في السيرة وتمسك بتلابيب الباحث فلا يستطيع منها فكاكاً.

هذا إلى ما تفرضه مكونات البيئة النسبية في الزمن والمكان من مؤشرات قد تصلح لهذا القرن ولكنها لا تصلح البتة لقرن مضى أو واقعة تاريخية سبق وان تخلقت في بيئة اخرى. في مكان غير المكان وزمان غير الزمان. وهي مؤشرات قد تكون كذلك خاطئة أو مضللة لكن المستشرق ابن القرن العشرين يتشبّث بها ويعض عليها بالنواجذ معتقدا انها مفاتيح الحل ومفردات المنهج العلمي السليم ؟

فكيف اذا اضيف إلى هذا كله نظرة اعتقادية مسبقة ترسم هياكلها على ضوء ايديولوجيتها الصارمة وتسعى لكي تجد في التاريخ السند والدليل ؟ بل انها تحاول ان تعمل في وقائعه بمشرطها الذي لا يرحم من اجل ان تفسرها على الانسجام مع مقولاتها المسبقة والدخول

بـالاكراه مـن عنـق الزجاجـة الضـيق الملتـوي' كمـا يفعـل النصـارى المتعصـبون أو المـاديون التاريخيون من المستشرقين ؟

بصدد الخطيئة المنهجية الاخيرة فان (مونتغمري وات) يتجاوز – بحق – الوقوع في اسارها بل انه ليعتمد – احيانا – منهجا مغايرا تماما يبدأ من الواقعة التاريخية نفسها وينتهي بالنتائج والدلالات التي تقود اليها. لذا فانه كثيرا ما كان يعلن رفضه لمقولات التفسير المادي للتاريخ' حيثما رأى الوقائع تتمرد على هذه المقولات وتسلك مجاري اخرى في العمل والصيرورة.

فاذا كان (وات) يرفض الاعتقادية الجامدة في تحليل التاريخ ، فانه يقع متعمدا حينا غير متعمد احيانا ، في اسر القيود الاخرى التي تتحكم في العقل الغربي عموما والتي المحنا اليها قبل قليل.

وهو يحاول في مدخل بحثه ان يعلن تجاوزه لهذه الازمة ، وان يتخذ موقفا حياديا اقرب إلى التجرد والموضوعية فيما يتعلق بالمسائل الفقهية التي اثيرت بين المسيحية والاسلام "فقد جهدت – يقول وات – في اتخاذ موقف محايد منها ، وهكذا بصدد معرفة ما اذا كان القرآن الكريم كلام الله أو ليس كلامه ، امتنعت عن استعمال تعبير مثل (قال تعالى) أو (قال محمد) في كل مرة استشهد فيها بالقرآن ، بل اقول بكل بساطة (يقول القرآن) وليس هذا يعني انني ارى من الضروري اتخاذ وجهة نظر مادية لضمان حياد المؤرخ ، بل انا ، على العكس ، اعبر كمؤمن موحد صريح "[١٢٨].

ويمضي (وات) إلى القول بان " مما لا شك فيه ان هذا الموقف الاكاديمي ناقص نوعا ما إذ يجب على المسيحيين تحديد موقفهم من محمد بقدر اتصال المسيحية بالاسلام ويجب ان يقوم هذا الموقف على اسس فقهية ، وانا اعترف بما في كتابي من نقص ، بهذا الصدد ، وان كنت ارى انه يقدم للمسيحيين المواد التاريخية اللازمة لتكوين رأي فقهي "[١٢٩].

ثم ما يلبث ان يتوجه بالحديث إلى (قرائه المسلمين) قائلا " لقد الزمت نفسي برغم اخلاصي لمعطيات العلم التاريخي المكرس في الغرب ، ان لا اقول أي شيء يمكن ان يتعارض مع معتقدات الاسلام الاساسية ولا حاجة بنا إلى القول بوجود هوّة فاصلة بين العلم الغربي والعقيدة اللاسلامية ، واذا حدث ان كانت بعض آراء العلماء الغربيين غير معقولة عند

---

(١٢٨) محمد في مكة ، المقدمة ، ص٥.

(١٢٩) نفسه.

المسلمين فذلك لأن العلماء الغربيين لم يكونوا دائما مخلصين لمبادئهم العلمية وان آراءهم يجب اعادة النظر فيها من وجهة النظر التاريخية الدقيقة "[١٣٠].

وهي شهادة من الرجل تستحق التقدير. تجيء بعد سيل من المعطيات المضادة للاسلام طرحها مستشرقون من شتى البلدان وتكاثرت حتى غدت ركاما وها هو (وات) يجيء لكي يعترف بان الخطأ لا يكمن في المبادئ العلمية ولكن في سوء استخدامها من قبل العلماء الغربيين لهذا السبب أو ذاك.

مهما يكن من امر فان (وات) اذا كان قد قدر على اتخاذ موقف حيادي من مسألة الصراع بين المسيحية والاسلام (على الرغم من ان هذا الاستنتاج ليبس صائبا بشكل نهائي كما سنرى) فانه لم يستطع الفكاك من نقاط الشد الاخرى التي تمسك بتلابيب العقل الغربي : النزوع العلماني والمسلمات المادية والرؤية الوضعية ، والانحسار على المنظور واعتقاد القدرة على اخضاع كل ظاهرة تاريخية أو بشرية لمقولات التحليل العقلي الخالص ، حتى ولو كانت (غيبية) تند عن التعليل والتحليل.

إن (وات) هو ابن الحضارة الغربية ولن يستطيع الرجل بسهولة ان ينشقّ على مواضعات البيئة التي شكلت عقله. ولكنه – مرة اخرى – يعد اكثر قدرة على (التحرر) من معظم زملائه المستشرقين الذين عاصروه أو سبقوه على الطريق.

***

– ٢ –

والآن يجب ان نختبر بحثه (محمد في مكة) لوضع اليد على عناصر الخلل المنهجي فيما يتعلق بهذه النقطة بالذات : اسقاط الرؤية العقلية المعاصرة على التاريخ.

منذ البداية ، ولما يمض سوى اسطر معدودات على اعلانه الحياد في مقدمته يتخذ من القرآن – كمصدر لدراسة العصر المكي – موقفا يفهم منه اثنتان اولاهما : عدم اطمئنانه إلى موضوعية روايات القرآن التاريخية وثانيتهما : ان الشك يحوم حول كثير من النتائج بهذا الصدد!!

فهو يقول ، ولما يزل بعد في المقدمة " جرت العادة بعض الوقت بان القرآن هو المصدر الرئيسي لفهم الفترة المكية ، ولا شك ان القرآن معاصر لتلك الفترة ولكنه متحيز ناهيك

(١٣٠) نفسه ، المقدمة ، ص٦.

بصعوبة تحديد التسلسل الزمني لمختلف اجزائه وما يحوم حول كثير من النتائج من شك ، فهو لا يمدنا باي شيء يمكن ان يكون لوحة كاملة لحياة محمد والمسلمين خلال الفترة المكية. وكل ما فعله كتاب السيرة الغربيون هو انهم اقروا اللوحة التي تقدمها السيرة عن الفترة المكية في خطوطها الكبرى واستعملوها اطارا لا يحتاج الا لتوشيته باكبر كمية ممكنة من مواد القرآن (!!) وافضل طريقة هي اعتبار القرآن والاحاديث الاولى كمصادر يتم بعض منها بعضها الآخر في مساهمته لفهم تاريخ الفترة المشار اليها. ويطلعنا القرآن على الجانب الفكري لمجموعة من التغيرات التي حدثت في مكة وفي ضواحيها ، ولكن يجب الاهتمام أيضاً بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية اذا اردنا تكوين لوحة متناسقة وادراك الجانب الفكري نفسه "[١٣١].

أما القول بتحيز القرآن وعدم موضوعيته والشك في صدق النتائج التاريخية التي يطرحها. فقد لا يستطيع احد ان يلزم الرجل بالاعتقاد بان القرآن – ككتاب منزل من الله (سبحانه وتعالى) – انما هو العلم الموضوعي اليقيني المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولكننا كمسلمين فاننا غير ملزمين البتة بقبول بل حتى بمناقشة اطروحات كهذه طالما اكد عليها المستشرقون.

ولكن حتى لو نظرنا إلى القرآن كوثيقة تاريخية فان القول بعدم موضوعيته وبالشك في معطياته التاريخية امر يحتاج إلى دليل. و(وات) يطرح مقولته على عواهنها. ولا نجد بعدها في طول كتابه وعرضه مقطعا قرآنيا واحدا يخرج عن موضوعية. ولا نجد أي دليل !!

وعلى أية حال فان كتاب الله ما جاء ليكون كتابا تاريخيا يتابع التفاصيل والجزئيات لحظة بلحظة ويوما بيوم ، كما نجد في العهدين القديم والجديد اللذين دونا في فترات لاحقة على نبوتي موسى وعيسى (عليهما السلام). وبرغم ذلك فقد استطاع عدد من الباحثين ان يستخلصوا من القرآن حقائق تاريخية قيمة عن العصرين المكي والمدني ، وان يصنعوا من نسيج الآيات ذات الصيغة التاريخية صورة عن السيرة هي في الحقيقة من ادق ما كتب عنها إلى الآن، ويكفي ان ننظر – على سبيل المثال – في كتاب دروزة (سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن الكريم) ، وصالح احمد العلي (محاضرات في تاريخ العرب) إلى حد ما ، وسيد قطب في تفسيره لسور (الانفال) و(آل عمران) و(الاحزاب) و(التوبة) و(محمد) و(الفتح) وغيرها في كتابه

---

(١٣١) نفسه ، ص١٢-١٣.

(في ظلال القرآن) لتبين ما يمكن ان يقدمه كتاب الله عن سيرة رسوله الكريم من معلومات ذات قيمة اكيدة.

إن القرآن الكريم كتاب عقيدة ومنهج حركة ، واذا حدث وان طرح جانبا من الوقائع التاريخية فان هدفه ليس تكوين لوحة متناسقة شاملة لمجريات الاحداث في عصر بكامله. وانما ملامسة بعض هذه الاحداث والتعقيب عليها لكي يركب منها موقفا بيني به الانسان المسلم والجماعة المسلمة. أي انه يعتمد اسلوب التعليم والتربية بالحدث وهو واحد من اشد الاساليب حيوية وعطاء لانه يحقق ما يسمى بمبدأ (الاقتران الشرطي) ويجعل النمو الحركي للجماعة الاسلامية يستمد مقوماته من الواقع المعيش لا من النظريات المعلقة في الفراغ والجدل اللاهوتي العقيم.

ثم ان (وات) ما يلبث ان يقع في تناقضين آخرين ، فهو من جهة يعترف بان القرآن يطلعنا على الجانب الفكري لمجموعة من التغيرات التي حدثت في مكة وفي ضواحيها ، وهي تغيرات تاريخية ، بل انها قمة التغيرات التاريخية ، لأنها بمثابة الحصيلة النهائية للحركة التاريخية التي ترفدها الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وبما ان القرآن الكريم ، كما أشرنا قبل قليل ، ليس بحثا في التاريخ ، فهو يكتفي بطرح التغيرات الاعمق والاشمل ، ويترك جزئياتها المتشكلة في تيارات العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مكتفيا بالاشارة اليها بين الحين والحين.

و(وات) من جهة اخرى يشير إلى امكان اعتماد الاحاديث الاولى كمصادر تتمم المعطيات القرآنية في المساهمة لفهم تاريخ الفترة المكية. وهذا امر معروف ومتفق عليه. الا ان الرجل ما يلبث بعد قليل ان ينقض هذه المقولة بالتشكيك في حجية الاحاديث هذه المرة " ربما بدا في بعض الاحيان – يقول وات – انني عمليا اقل تعلقا بالحديث من اولئك الذين هم اكثر مني شكا فيه "(١٣٢).

على الرغم من انه كان قد طرح في مقدمة كتابه نفسها موقفا اكثر اعتدالا من الحديث حيث قال " لما كنت ابحث في خلفية حياة محمد وفترته' فقد تقدمت في الفكرة القائلة بان الاحاديث يجب ان تقبل عامة ، وان تؤخذ بحذر ، وان تصحح قدر الامكان في المسائل التي

---

(١٣٢) نفسه ، المقدمة ، ص١٣.

نشك فيها بوجود (تلفيق مغرض) ولكن يجب الا ترفض رفضا باتا الا اذا وقع تناقض داخلي بينها "[١٣٣].

***

– ٣ –

و(وات) اسوة بكل الباحثين الغربيين ، يأخذ بالمفهوم الغربي الحديث للنمو التاريخي للاديان ، أي ان الرسول أو النبي يعمل وفق المقتضيات المرحلية لكل فترة تاريخية ، ومن ثم فان منظوره للدين انما هو وليد مواضعات تلك الفترة فهو لا يملك – ابتداء – رؤية شمولية عن ابعاد دوره كنبي وعن الملامح النهائية للعقيدة التي جاء لكي يبشر بها. فمحمد (صلى الله عليه وسلم) – على سبيل المثال – ما كان يعرف في المرحلة المكية ان الدعوة الاسلامية هي دعوة عالمية ، بل ما كان يعرف انها دعوة للعرب جميعا ، ولم يتبين له ذلك الا في فترات تالية ووفق الظروف التاريخية التي كان يجتازها حينا بعد حين.

وقد يلتبس هذا المفهوم الوضعي الخاطئ للدين كحركة شاملة ذات اهداف محددة ابتداء، مع واحدة من اشد الحقائق اهمية في مسيرة الاديان تلك هي ان كل دين سماوي لا يتنزل دفعة واحدة ويطلب من المؤمنين به الالتزم بكافة واجباته ومنهيّاته مرة واحدة ، انما يتنزل على مراحل ، وينبني تدريجيا عبر مدى زمني قد يطول وقد يقصر، وهو خلال صيرورته تلك ، يتعامل مع المراحل التاريخية وفق معطياتها المرحلية لكي يقدر على مد الجسور واقامة الحوار وتحقيق التأثير المطلوب. هذا إلى ان النمو العقيدي ، وفق هذا المنظور الحركي ، يحقق من النتائج الايجابية وبيني من القيم ويعزز من المبادئ ما لا يتحقق عشر معشاره في حالة التنزل الكامل دفعة واحدة. ولهذا ننزل القرآن الكريم على مراحل ، وهو يقولها بوضوح : **{ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً }**[١٣٤].

وراح من خلال تنزله ذاك على مراحل ، بيني الانسان المسلم الجماعة المسلمة خطوة ، ولبنة لبنة ، من اجل ان يستقيم البناء ويقدر ، عن طريق الالتحام بين التعاليم والتاريخ ، ان يحقق هدفه حركيا. وليس وفق طرائق الجدل النظري واللاهوت.

---

(١٣٣) نفسه ، المقدمة ، ص١١–١٢.

(١٣٤) الاسراء ، (آية ١٠٦).

ولكن هذا لا يعني البتة ان الانبياء (عليهم السلام) ما كانوا يرون ابعد من مواطئ اقدامهم. وانهم ما كانوا يعرفون سوى مطالب المرحلة الزمنية التي يعملون خلالها كما يرى المفهوم الغربي للتطور التدريجي.

إن (وات) يقع في اسار هذا المفهوم بسبب من كونه ابن بيئته الثقافية ، لكي ما يلبث ان ينفذه في اكثر من مكان من كتابه عن (محمد) فيقع في حشد من الاخطاء.

فهو – يقول – مثلا – معلقا على اقصوصة اعتراف الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأصنام قريش الثلاثة (اللات والعزى ومناة) عبر مساومته مع الزعامة القرشية فيما يعرف (بالايات الابليسية) التي سبق وان ناقشنا تبنّيه لها في مكان آخر. " عد الفقهاء المسلمون الذين ظلوا بعيدين عن المفهوم الغربي الحديث للنمو التدريجي محمداً ، على انه قد اخبر منذ البدء بالمضمون الكامل لعقيدة الاسلام ، فكان من الصعب عليهم ان لم ير محمد خروج الآيات الابليسية على عقيدة الاسلام (!!) والحقيقة هي ان توحيده كان في الاصل ، كما كان توحيد معاصريه المثقفين ، غامضا ، ولم ير بعد ان قبول هذه المخلوقات الآلهية (!!) كان يتعارض مع هذا التوحيد. لا شك انه يعد اللات والعزى ومناة على انها كائنات سماوية اقل من الله ، كما اعترفت اليهودية والمسيحية بوجود ملائكة. ويتحدث القرآن عنها في الفترة (الاخيرة) ؟ المكية باسم الجن وان كان يتحدث عنها في الفترة المدنية على انها مجرد اسماء ، اذا كان ذلك فليس من الضروري اكتشاف سبب خاص للايات الابليسية ، فهي لا تدل على اي تقهقر واع للتوحيد بل هي تعبير عن النظريات التي دافع عنها دائما محمد "[١٣٥].

أية فوضى فكرية هذه ، واي تصور مضطرب متهافت للدين ، لا هو بالمادي فيرفض الحقيقة الدينية ولا هو بالمؤمن فيعترف ببداهتها ومسلماتها ؟!

لقد بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما بعث سائر الانبياء (عليهم السلام) من قبله ، بعقيدة واضحة كل الوضوح ، صارمة أشد الصرامة مستقيمة بينة لا تقبل نكوصا أو التواء، ولا تقبل تغيرا أو تطورا تدريجيا : انها شهادة ان لا اله الا الله ، بكل ما تعنيه هذه الشهادة من تسليم كامل بالالوهية المتفردة الواحدة ، ورفض للتعدد بشتى صيغه واشكاله :

---

(١٣٥) محمد في مكة ، ص١٧٠.

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }[١٣٦]. **{ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ }**[١٣٧]. **{ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنتَظِرِينَ }**[١٣٨]. **{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }**[١٣٩]. **{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ }**[١٤٠]. **{ إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ }**[١٤١]. **{ يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ }**[١٤٢]. **{ وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }**[١٤٣]. **{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ }**[١٤٤].

منذ اللحظات الاولى كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يدرك اوضح الادراك واعمقه القاعدة التي سينطلق منها لدعوة الناس إلى الدين الجديد ، والشعار الذي سيرفعه بمواجهة العالم، والهدف المحوري الذي سيسعى لتجميع المنتمين اليه :

شهادة لا اله الا الله :

---

(١٣٦) الاعراف ، (آية ٥٩).

(١٣٧) الاعراف ، (آية ٦٥).

(١٣٨) الاعراف ، (آية ٧١).

(١٣٩) الاعراف ، (آية ٧٣).

(١٤٠) (الاعراف ، ٨٥) وانظر : (هود ٨٤،٦١،٥٠) ، (النمل ٦٤،٦٣،٦٢،٦١،٦٠).

(١٤١) هود ، (آية ٥٤).

(١٤٢) النحل ، (آية ٢).

(١٤٣) النحل ، (آية ٥١).

(١٤٤) الانبياء ، (آية ٢٥).

{ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ }(١٤٥).

{ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَانِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }(١٤٦). **{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }**(١٤٧). **{قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }**(١٤٨). **{ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }**(١٤٩).

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }(١٥٠). **{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ }**(١٥١). **{ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً }**(١٥٢). **{ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}**(١٥٣). **{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }**(١٥٤).

ويقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) موضحاً القاعدة التي ينطلق منها والهدف المركزي الذي يسعى اليه " امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحق الاسلام وحسابهم على الله "(١٥٥).

---

(١٤٥) التوبة ، (آية ١٢٩).
(١٤٦) الرعد ، (آية ٣٠).
(١٤٧) الكهف ، (آية ١١٠).
(١٤٨) الانبياء ، (آية ١٠٨).
(١٤٩) القصص ، (آية ٨٨).
(١٥٠) ص ، (آية ٦٥).
(١٥١) محمد ، (آية ١٩).
(١٥٢) المزمل ، (آية ٩).
(١٥٣) البقرة ، (آية ١٣٣).
(١٥٤) التوبة ، (آية ٣١).
(١٥٥) البخاري ، تجريد ١٣/١(طبعة سنة ١٩٣١).

القاعدة المحورية الثابتة ، الواضحة ، الصارمة التي ظل الرسول (صلى الله عليه وسلم) يدعو الناس اليها ويقاتل الجاهلية عليها' ويبني امته ودولته على اساسها. وكان يعرف جيدا بوحي الله وتسديده ان أي انحراف عن هذا المفهوم ، بأي قدر وفي أي اتجاه ومن اجل أي هدف، يعني التفريط بعصب العقيدةوضياع وجهها وملامحها.

ولذا كان (صلى الله عليه وسلم) – كما ذكرنا وكما اكد وكرر جل الباحثين في تاريخ النبوة – مستعدا للقاء مع قريش في كل شيء الا في هذه وللحوار والانفتاح على أي شيء الا على هذه ولاقامة الجسور بين الاطراف كافة للوصول إلى أي شيء مشترك الا في قضية التوحيد المطلق الذي هو قاعدة الدين وعصب الدعوة واساس العقيدة التي بعث لكي يحققها في العالم.

واذا حدث فيما بعد ، على المستوى الزمني ، ان تنزلت آيات القرآن لكي تواصل البناء العقيدي ، وتمد آفاقه وتزيد معطياته غنى. فان هذا لا يعني حدوث تطور تدريجي بالمفهوم الغربي للتطور. فان الاساس العقيدي ظلّ هو الاساس وان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ظل على بينة من الامر ازاء هذا الاساس ، وكل الذي كان يحدث هو إضافة معطيات جديدة تنبثق عن القاعدة نفسها وتبني على محورها الثابت الواضح.

وثمة ، تفريق آخر يجب ان يكون واضحا في الاذهان : ان العقيدة غير الشريعة صحيح ان هذه تقوم على تلك وتنبثق عن مقولاتها ، وتكسب صيغها من معادلات العقيدة نفسها، ولكنها تجيء فيما بعد تتضمن حشدا من الجزئيات التنفيذية التي لم يك النبي أي نبي ، يعرف عنها مقدماً. اما العقيدة فهي تصور اساسي شامل للكون والحياة والمصير ، فان لم يكن النبي يعرف مقدما أبعاده وخصائصه واسسه فكيف يبدأ دعوته مجابهاً بها الانسان والعالم والطبيعة والتاريخ ؟

ولقد ناقشنا من قبل تهافت ما اسماه (وات) بالايات الابليسية التي تحكي عن اعتراف الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالاصنام مقابل اعتراف الجاهليين بالله الواحد !! وسقوطها بالضرورة. ولكننا نرجع اليها مرة اخرى مضطرين لأن (وات) يدافع من خلالها عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) دفاعا ملتويا لا ندري ان كان متعمداّ خبيثا ام كان استمرارا طبيعيا لنظرية الغربيين اياها عن التطور التدريجي للدين.

إنه يقول بان ليس من حق اصحاب محمد ان يستغربوا قبوله اللات والعزى ومناة ، وانه لم ير في ذلك خروجا على عقيدة الاسلام !! إذ كان عليهم ابتداء ان يدركوا بان نبيهم لم يكن يعرف يومها المضمون الكامل لعقيدة الاسلام.

بل ان (وات) يمضي خطوة اخرى بهذا الاتجاه فيرى ان توحيد محمد كان في الاصل غامضا تماما ، كما كان توحيد معاصريه المثقفين ولم ير حتى ذلك الوقت أي بعد مرور سنين طويلة على بدء دعوته القائمة على التوحيد المطلق ، ان قبول هذه الاصنام يتعارض مع هذا التوحيد.

بل ان (وات) ليمضي ابعد من ذلك كله فيخلع صفة المخلوقات الإلهية على الاصنام الحجرية المرصوفة على قارعة كل طريق ، ثم يجزم (وهو صاحب المنهج الشكي في السيرة) بان الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يعد اللات والعزى ومناة كائنات سماوية ولكنها اقل من الله !!

ألا يدرك هذا الباحث انه في استنتاجاته التي تتميز بالغرابة والفجاجة يتناقض مع بداهات الاسلام ومسلماته التوحيدية التي انطلق بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) منذ اللحظات الاولى. وسوف يقاتل العرب جميعا من اجل الحفاظ على نقائها وتفردها ؟

ولماذا يشك الرجل وينفي الكثير من وقائع السيرة التي لا ترتطم أو تتناقض مع الخط العام لحركة النبوة ، بينما يقبل هذه الرواية الشاذة الضعيفة المهلهلة ، المدخولة التي ترتطم مع الاوليات والاسس والبداهات ؟

ثم ما يلبث (وات) ان يبلغ حدّ التخليط الذي تنعدم معه الرؤية الصحيحة للاشياء عندما يقرن اعتراف محمد (صلى الله عليه وسلم) بالاصنام " تلك الكائنات السماوية التي هي اقل من الله " باعتراف اليهودية والمسيحية بوجود الملائكة !!

أية علاقة تربط بين الاصنام وبين الملائكة ؟ وهل من مسوغ هنا أو في اية مناسبة لاستعراض الفروق التي تميز بين الحجارة والملائكة ، وللتزييف الديني الذي تمثله الاولى والحقيقة الغيبية المؤكدة التي تمثلها الثانية. للعصيان الذي تمثله الاولى ، وللطاعة والتسليم والاذعان الذي تمثله الثانية ؟

ألا يجوز ان يكون (وات) قد طرح هذا التقابل غير المنطقي للتشكيك بجدية الموقف العقيدي لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولتمرير هذه الواقعة المزيفة في الوقت نفسه ؟

وفي ختام مقولته يطرح (وات) معميات وتناقضات اخرى فيشير إلى ان القرآن يتحدث عن تلك المخلوقات الالهية (الاصنام) في الفترة المكية الاخيرة باسم (الجنّ) !! وان كان يتحدث عنها في الفترة المدنية على انها مجرد اسماء.

أيتأخر – اذن – رفض الصنمية وتجريدها من الفاعلية حتى نهاية العصر المكي بل حتى العصر المدني ؟ فلم كان اذن ذلك الصراع الذي لا هوادة فيه بين المسلمين والزعامة الوثنية ؟ ولم كانت قولة محمد المبكرة التي لم يشأ (وات) ان يشير اليها أو يعترف بها " والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ؟ " وما هو (الامر) ان لم يكن التوحيد المطلق ، والرفض المطلق للوثنية بكل صيغها واشكالها ؟ وكيف تفوت على (وات) هذه الحقائق جميعا بحيث انه يختتم مقولته بهذه الكلمات القاطعة " ان الحادثة لا تدل على أي تقهقر واع للتوحيد بل هي تعبير عن النظريات التي دافع عنها دائما محمد "!

ولا اعتقد ان الامر يحتاج إلى مزيد من نقاش وقد بلغ هذا الحد من التبعثر والفجاجة.

***

– ٤ –

وانطلاقا من اسقاط المفهوم الغربي الخاطئ للدين على وقائع السيرة ، نلتقي بحشد من الاستنتاجات والتحليلات الخاطئة التي يعتمدها (وات) وان كانت بشكل عام اقل حدة مما نجده لدى المستشرقين الآخرين. لكنها على اية حال تمثل ارتطاما بحقائق النبوة ، ولا يمكن معها للعقل المسلم الا ان يرى فيها سذاجة وجهلا ، أو خبثا ومكرا. فنحن نقرأ عبارات كهذه يمكن ان تكون مناقشتها ضربا في غير هدف أو اعترافا على الاقل بجديتها التي يجب الا تخلع عليها ابدا حتى على المستوى الاكاديمي. فما كان الدين الاسلامي واسسه العقيدية ، على وجه الخصوص، حقلا لمماحكات الاكاديميين وتجاربهم الفكرية في شرق أو غرب : " لقد تملكت محمداً ، منذ وقت مبكر عقيدة ان الكلمات التي تصل اليه هي وحي من الله ، مهما كانت الصورة الدقيقة لتجربته الاولى في تلقي الوحي. وقد اظهر الايمان بذلك منذ البداية في دعوته العامة "[١٥٦].

ونقرأ " على المؤرخ ان يعترف بصدق محمد المطلق في اعتقاده بان الوحي كان يأتيه من الخارج ، وانه يمكن ان يكون قبل نزول الوحي قد سمع من بعض الاشخاص قسما

(١٥٦) محمد في مكة ، ص٢٠٣.

من القصص التي يذكرها القرآن ، وعندئذ يترك المؤرخ الموضوع إلى الفقهاء ليقوموا بنوع من التوفيق "[١٥٧].

ونقرأ " كما نرى اثر الشك في اليوم الاخير وراء السؤال الموجه إلى محمد **{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ... }** ويرد القرآن على هذا السؤال ، أو يتحاشى الرد لانه يمكن ان يحدث بلبلة لمحمد ، وهذا هو الهدف من سؤاله "[١٥٨].

و(وات) يعود إلى مسألة النمو التدريجي والضرورات المرحلية. إلى آخره فيتصور ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يعرف حتى اواخر العصر المكي ، الابعاد الحقيقة لدعوته وانها ليست لقريش وحدها أو للعرب وحدهم وانما للعالم جميعا. ويغفل (وات) كما اغفل غيره من المستشرقين تلك المعطيات القرآنية التي كانت تؤكد منذ بدايات العصر المكي : عالمية الدعوة الاسلامية وان الانبياء (عليهم الصلاة والسلام) لا يمكن ان يسيروا كالعميان ، خطوة خطوة دون ان يملكوا مسبقاً استشرافًا شاملا لما يسعون لتحقيقه ، ولا حتى للخطوات التالية التي يجب عليهم ان يقطعوها. واذا كان الزعماء العاديون يمتلكون رؤية مستقبلية نافذة تتجاوز حدود الزمن الراهن وتتحرك صوب ابعاده النائية وفق برنامج مرسوم. افلا يكون الانبياء مبعوثو الله إلى العالم، قادرين على امتلاك هذه الرؤية ، بل ممتلكين بارادة الله ووحيه ، زمامها منذ اللحظات الاولى !!

على اية حال فهذه هي الآيات القرآنية (المكية) التي تؤكد عالمية الدعوة الاسلامية منذ البدايات الاولى : **{ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ }**[١٥٩]. **{ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ }**[١٦٠]. **{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ }**[١٦١].

---

(١٥٧) نفسه ، ص٢٠٥.

(١٥٨) نفسه ، ص٢٠٠.

(١٥٩) الانعام ، (آية ٩٠).

(١٦٠) يوس/ف ، (آية ١٠٤).

(١٦١) الانبياء ، (آية ١٠٧).

{ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا }[١٦٢]. **{ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ }**[١٦٣]. **{ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين }**[١٦٤]. **{ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(٢٦)إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ }**[١٦٥]. **{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}**[١٦٦].

ونسمع (وات) يقول بصيغ الجزم والاعتقاد التي لم نألفها منه " نحن نعتقد ان محمدا في هذا الوقت (بعد عودته من الطائف) أخذ يدعو افرادالقبائل البدوية للدخول في الاسلام ، وان وراء هذا النشاط تكمن فكرة غامضة في توحيد العرب جميعاً "[١٦٧].

ونسمعه يقول " وعد محمد نفسه في البدء مرسلا لقريش خاصة ، وليس لدينا أية وسيلة لمعرفة ما اذا كان قد فكر بتوسيع افق رسالته لتشمل العرب جميعا' قبل وفاة ابي طالب أو بعدها. وقد اضطره تدهور وضعه مع ذلك ، ان ينظر إلى ابعد من ذلك فلا نسمع من ثم خلال سنواته الثلاث الاخيرة في مكة الا عن علاقاته بالقبائل البدوية وسكان الطائف ويثرب "[١٦٨].

وفي مكان آخر بصور محمدا (صلى الله عليه وسلم) كما لو كان لا يميز بين الدين والسياسة ، ولا يعرف تماما ان دعوة كدعوته ستقود بالضرورة إلى مركز الزعامة ، وانه لم يكن يفكر باي دور غير الدور الديني الصرف وفق المفهوم الغربي وانه لم " يكن سوى رجل ينذر " وانه " كان يجب تنبيهه على الجوانب السياسية الدينية "[١٦٩]. ومع ذلك يقول (وات) " لم يكن يمكن استمرار الفصل بين رسالة النبوة ووظيفة القائد السياسي في الظروف المشار اليها ، أي في مثل نظرة العرب لما يحدد صفات الفضل والكفاءة الضرورية للحكم. فأي انسان كان في استطاعته فيما بعد انتهاج سياسة تكذبها كلمة من الله أو حتى من نبيه ؟ وهكذا تكون الاشارة

---

(١٦٢) الفرقان ، (آية ١).
(١٦٣) ص٧ ، (آية ٨٧).
(١٦٤) القلم ، (آية ٥٢).
(١٦٥) التكوير ، (آية ٢٦،٢٧).
(١٦٦) سبأ ، (آية ٢٨).
(١٦٧) محمد في مكة ، ص٢٢٣.
(١٦٨) نفسه ، ص٢١٩.
(١٦٩) نفسه ، ص١٧٧.

إلى الآلهة بداية معارضة القرشيين العنيفة ، كما ان سورة الكافرين وان بدت دينية صرفة ، فهي حث لمحمد على فتح مكة "[١٧٠].

ونحن نقرأ في هذا الصدد هذه المقولة كذلك " ان السبب الاساسي في المعارضة كان من دون شك ان زعماء قريش وجدوا ان ايمان محمد بانه نبي ستكون له نتائج سياسية، كانت السنة العربية القديمة تقول ان الرئاسة في القبيلة يجب ان تكون من نصيب اكثر الرجال حظا من الحكمة والحذر والعقل ، فلو ان اهالي مكة اخذوا يؤمنون بانذار محمد ووعيده وجعلوا يستفسرون عن الطريق التي يجب ان تدار بها شؤونهم فمن ذا الذي يحق له نصحهم غير محمد نفسه "[١٧١] ؟

فاذا كان زعماء قريش قد ادركوا العلاقة بين الدين والسياسة ، بين الدعوة والقيادة فكيف لم يدرك محمد ذلك وهو اكثر من أي قرشي آخر حظا " من الحكمة والعقل " كما يعترف (وات) نفسه ؟

كما انه يعود إلى مسألة الضرورات المرحلية ، إلى درجة انه يوحي للقاريء بان القرآن الكريم كان يتحايل على قريش خشية الارتطام بها فيؤجل نهيه عن الربا ، احد اعمدة النشاط المالي المكي ، إلى وقت طويل بعد الهجرة ، ويكتفي بنقد موقفهم الشخصي من الثروة. " لقد كان زعماء مكة من بعد النظر بحيث اقروا بالتناقض بين تعاليم القرآن الاخلاقية ورأس المال التجاري الذي كان عماد حياتهم، ولهذا لم يظهر النهي عن الربا حتى وقت طويل بعد الهجرة ، بينما ظهر منذ البداية نقد لموقفهم الشخصي من الثروة "[١٧٢].

ويصعب على المرء التصديق بان مستشرقا متعمقا كوات لا يدرك الفارق بين العقيدة والشريعة في الاسلام وأن المرحلة المكية تختلف عن المرحلة المدنية في ان حركة الاسلام في الاولى كانت منصبة على البناء العقيدي بينما انصبت في المرحلة التالية على البناء التشريعي بسبب قيام دولة الاسلام وما تتطلبه من نظم ومعطيات تشريعية ، مع استمرار البناء العقيدي بطبيعة الحال. فالذي حدث ليس تحولا في بنية الاسلام نفسه ، بل في تنظيم الاولويات بعد انجاز مرحلة بناء الجماعة الاسلامية وقيام دولة الاسلام في المدينة ومع ذلك فنحن نقرا في كتاب (وات) هذه العبارة " نستطيع القول بان الاسلام قد تحول في خطوطه الكبرى عند الهجرة،

---

(١٧٠) نفسه ، ص١٧٧-١٧٨.

(١٧١) نفسه ، ص٢١٤.

(١٧٢) نفسه ، ص٢١٥.

ولكن معظم مؤسساته كان لا يزال في مرحلة بدائية ، فلم يتم بعد ، تحديد الصلوات ولا العبادة ، وان كانت قد وضعت الاسس لذلك. ولم تظهر ظهورا كاملا اركان الاسلام الاخرى : الصيام ، الزكاة ، الشهادة ، والحج ، ومع ذلك كانت كل الافكار الرئيسية : الله ، اليوم الاخر، الجنة والنار، وارسال الانبياء ، واضحة تماما "[١٧٣].

وفرق واضح بين ان نقول بان معظم مؤسسات الاسلام كانت في طور الولادة أو التشكيل وبين ان نقول انها كانت في مرحلة بدائية !!

ذلك ان للكلمات ايحاءات وظلالا ، وانه ليتوجب على الباحث الجاد ان يعرف كيف ينتقي كلماته. والا كان من حقنا – كطرف في الموضوع – ان نتهمه بالاعراض !! أو على الاقل بانه يجهل الفارق الحاسم بين المرحلتين المكية والمدنية حيث لم يكن التوجه في الاولى ينصب اساسا على اقامة المؤسسات ، وكان الهدف : العقيدة من اجل الاساس الصالح لاقامة المؤسسات.

***

– ٥ –

والآن ماذا بصدد تقليد القرنين الاخيرين القائل بفاعلية العامل الاقتصادي في التاريخ ، والذي اخذ يتضخم ويتضخم حتى غدا على يد ماركس وانغلز الحاكم بامره في حركة التاريخ ، بل انه اصبح القاعدة الاساسية لكل تغير أو تحول حتى ولو كان دينيا أو اخلاقيا أو جماليا صرفا ؟

ولقد اسر هذا الاعتقاد بدرجة أو اخرى ، حتى اولئك المؤرخين الذين لم يعتنقوا المادية التاريخية ، ولكنهم اصروا على تفسير كل الظاهرة تاريخية بالدافع الاقتصادي. فلما تبين بمرور الزمن ، واتساع امكانات مناهج البحث وتكشف المزيد من الحقائق المضادة عجز هذا الدافع عن ان يكون وراء كل ظاهرة أو ان يفسر كل حدث ، تراجعوا بدروهم وخففوا من تبنيهم للدافع ، مفسحين المجال لفاعلية العوامل الاخرى التي لا تقل اهمية بحال من الاحوال. اما المستشرقون عموما فقد تأخروا بعض الشيء في اعتماد هذا الدافع ربما لأن وقائع التاريخ الاسلامي تتأبى ، اكثر من الاحداث التاريخية الاوربية' على دافع كهذا. ولقد مر بنا كيف كان (وات) واحدا من الذين رفضوا الاخذ بمنطق التفسير المادي للتاريخ.

---

(١٧٣) نفسه ، ص٢٣٨-٢٣٩.

ولكن ذلك لم يكن يعني بالنسبة اليه ، تجاوز الاخذ بمنطق التأثيرات الاقتصادية في التاريخ. فان القول بفعالية العامل الاقتصادي في التاريخ شيء آخر تماما غير ما تريد المادية التاريخية ان تقوله ، فتجعل من هذا العامل الطاقة الحركية الاساسية للفعل التاريخي وتتخذه قاعدة تحتية لسائر المناشط الحضارية.

واذا كان (وات) يرفض هذا التوجه احادي الجانب فانه يتشبث بدور العامل المادي عموما ، والاقتصادي على وجه الخصوص ، في الحركة التاريخية. وهو يقول بهذا الصدد " ان اهتمام المؤرخين ومناهجهم قد تغيرت خلال نصف القرن الاخير ولا سيما انهم ادركوا بصورة افضل العوامل المادية الكامنة في التاريخ. يعني ذلك ان مؤرخي منتصف القرن العشرين يهتمون الاكثر بتحديد اثر كثير من المسائل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية دون ان يهملوا الجانب الديني أو يقللوا من شأنه ، حتى ان الذين (من امثالي) يرفضون القول بان مثل هذه العوامل يمكنها ان تحدد بصورة مطلقة سير الامور يجب عليهم مع ذلك ان يعترفوا باهميتها. وليست ميزة هذه السيرة لمحمد ان تستعرض المصادر المعروضة عليها بقدر اهتمامها بهذه العوامل المادية ومحاولتها ان تقدم جوابا على العديد من الاسئلة التي قلما اثيرت في الماضي "[١٧٤].

ومع هذه التحفظات التي يطرحها (وات) فاننا نجده ينساق بين الحين والاخر ، وراء اغراء هذا التقليد المنهجي القائم على منح الاهمية ، وربما الاولوية ، للعامل الاقتصادي لكي يفسر وقائع من السيرة تند بطبيعتها عن ان تكون تمخضا عن العلاقات الاقتصادية ، في اطار حركة دينية كسرت ، كما رأينا في بدء البحث ، كل (التنظيرات) المادية التي اريد اخضاعها لها!!

فهو – مثلا – يقتبس فكرة الصراع الطبقي في حديثه عن المنتمين للاسلام في العصر المكي فيرى ان الاسلام " لم يستمد قوته من رجال الدرجة السفلى من السلم الاجتماعي بل من اولئك الذين كانوا في الوسط وادركوا الفرق بينهم وبين اصحاب الامتيازات في الذروة فاخذوا يقنعون انفسهم بانهم اقل امتيازا منهم' فنشأ صراع ليس بين (الملاكين) و(المعوزين) بل بين الملاكين والذين هم اقل منهم "[١٧٥].

---

(١٧٤) نفسه ، المقدمة ، ص٦-٧.

(١٧٥) نفسه ، ص١٦٠.

لا ريب ان اعتماد (المقاييس المادية) لفحص الدوافع التي قادت المسلمين وغير المسلمين للانتماء إلى الدين أو إلى اية عقيدة أو دين ، أمر يرفضه واقع (التجربة) في ابعادها الشاملة الرحبة ، فلم يكن البحث عن (الحق) والتشبث في الانتماء اليه امر معدة تبحث عن طعامها وجسد يرنو إلى الاشباع ، بقدر ما هو مسألة نفسية معقدة يلعب فيها الظمأ الروحي واليقين الفكري والقناعة الذاتية دورها الحاسم بحيث ان سائر الامور الاخرى ، الحسّية والجسدية تظل (ثانوية) بالنسبة لهذه الدوافع الاساسية.

هذا على المستوى الذاتي ، أما على المستوى التاريخي ، فان هذا المقياس يتعرض للتهافت – كذلك – بمجرد القاء نظرة متأنية على قوائم المسلمين الاول الذين كان اكثرهم – كما يقول صالح علي – من التجار ورجال الطبقة الوسطى وممن كانت لهم عشائر تحميهم وتدفع عنهم. بل حتى وجود الحلفاء والمستضعفين في الاسلام. لا ينهض دليلا على صحة هذا الرأي. إذ ان هؤلاء نالوا كثيرا من الاضطهاد بسبب عقائدهم ، ومنّوا بكثير من الآمال اذا تركوا الاسلام، فرفضوا واصروا على التمسك بالدين الجديد ، مما يدل على ان دافع العقيدة هو الذي كان يدفعهم إلى اعتناق الاسلام. والواقع ان الروايات اشارت صراحة إلى دوافع بعضهم ، فعثمان بن مظعون كان من قبل ظهور الاسلام من الباحثين عن الدين ، وسعيد بن زيد بن عمرو هو ابن الرجل الذي كان حنيفا يبحث عن دين ابراهيم ، وخالد بن سعيد بن العاص دان بالاسلام لانه رأى نفسه في المنام على حافة هاوية من النار يدفعه اليها ابوه ويدفعه عنها رجل آخر لينقذه منها. اما عمر بن الخطاب الذي اسلم بعد هذه الفترة فقد اسلم لتأثره من سماعه آيات القرآن ومن رؤيته اخته تتأذى[١٧٦].

ترى كم من المسلمين قادتهم إلى الاسلام تلك (الهزة الوجدانية) التي احدثتها آيات القرآن الكريم الساحرة ، المعجزة ، وهي تتلى عليهم ، فتغسل ضمائرهم وتزيل زيغ قلوبهم ، وتعيد ألق الذكاء إلى عقولهم ونور اليقين إلى بصائرهم وافئدتهم ؟ وهل بعد هذه (الهزة) الشاملة التي تنقل الانسان من حال إلى حال تفكير (منفعي) محدود في امعاء تمتلئ طعاما ، وجيوب تفيض فضة وذهبا؟ ما الذي دفع عثمان بن عفان وهو في قمة قريش غنى ومكانة وامانا ومحبة وجاها، إلى ان يتمرد على جاهليته ويقف في لحظات الدعوة الاولى ، الصعبة الغامضة ، الخطيرة ، بمواجهة قومه وعشيرته رافضا الغنى والمكانة والجاه والمحبة ، مختارا بدلا منها الفقر والزراية

---

(١٧٦) محاضرات في تاريخ العرب ، ٣٣٨/١.

والخوف والكراهية ؟ حتى انه ليستهين بسياط عمه وهي تنزل على ظهره من اجل ان تعيده الى حظيرة الاباء والاجداد ؟ وما الذي دفع ابا بكر – وعشرات غيره – إلى ان ينفقوا من اموالهم الخاصة التي كدحوا من اجلها ينفقونها إلى آخر درهم ، حتى ان الرسول ليسأل الصديق : وما الذي ابقيت لعيالك يا ابا بكر ؟ فيكون جوابه : أبقيت لهم الله ورسوله !! وما الذي دفع سعد بن ابي وقاص ، الغني المدلل ، إلى ان يرفض توسّلات أمه وقد اوثقته رباطا من اجل ان يرتد عن دينه ، فما يكون جوابه الا ان يقول : والله يا ام لو رأيتك تموتين مائة مرة ثم تعودين ثانية إلى الحياة ما ردني ذلك عن ديني ؟ (وغير عثمان وابي بكر وسعد كثيرون).

إن (وات) نفسه يقول " لقد انتمى إلى الاسلام شباب من افضل العائلات وخالد بن سعيد افضل مثل لهذه الفئة ، ولكن هنالك آخرون غيره وكانوا ينحدرون من اقوى العائلات واشهر القبائل ، تربطهم روابط متينة بالرجال الذين يملكون السلطة في مكة وكانوا في مقدمة اعداء محمد ، ومن المهم ان نشير إلى انه وجد في معركة بدر امثلة على الاخوة والآباء والابناء والعم وابن الاخ الذين كانوا يقاتلون في صفوف كلا الحزبين "[١٧٧].

وبذلك يناقض الرجل نفسه.

.. ثم .. إلى أي دين كان ينتمي هؤلاء المترفون الاغنياء ومتوسطو الحال الذين ينتمون إلى اشهر القبائل المكية واعلاها سلطة ومكانة ؟ إلى الدين الذي كانت حملات كتابه تتنزل منذ بداياتها الاولى (العلق ، القلم وغيرهما)[١٧٨]. صواعق على رؤوس الاغنياء والزعماء تلك الآيات التي " نددت بالاغنياء الذين يقبضون ايديهم الطاغية الباغية المعتزة والمتكبرة عن الحق "[١٧٩].

وشبيهة بالنص السابق الذي اوردناه لوات قبل قليل ، تلك العبارات التي يفسّر فيها دافع اسلام عمر بن الخطاب. وكأن انتماءه للدين الجديد كان بسبب رغبة (مصلحية) تملّكته في تجاوز ما يمكن ان تنتهي اليه قبيلته من تدهور وانحطاط " لا نجد – يقول وات – اية اشارة إلى

---

(١٧٧) محمد في مكة ، ص١٥٨.

(١٧٨) أنظر : (سورة الزخرف ٢٢–٢٣) ، (هود ١١٦) ، (المزمل ١١–١٢) ، (الاسراء ١٦) ، (الواقعة ٤١–٤٨) ، (الحاقة ٢٥–٢٩) ، (الهمزة ١–٤) ، (سبأ ٣١–٣٧) ، (غافر ٤٧–٤٨) ، (ابراهيم ٢١) ، (الاحزاب ٦٦–٦٧) ، (الاعراف ٣٦–٤٠) ، (الفرقان ٢١) ، (الانعام ١٣٣) ، (الجاثية ٣١) ، (الجن ٢٤) ، (النازعات ٢٨–٢٩) ، (النبأ ٢١–٢٢) ، وانظر : صالح احمد العلي : محاضرات ٣٥٧/١–٣٥٩.

(١٧٩) دروزة : سيرة الرسول ١٦٥/١.

العوامل الاقتصادية (في اسلام عمر). ومع ذلك فان عمر وان كان واثقا من مكانته في القبيلة ، احس بالضيق بسبب مكانة قبيلته في مكة ، ولا يستبعد ان يكون شعوره بالضيق قد ضاعف حقده على زملائه الذين كانوا يتولون قيادة القبيلة خشية ان يؤدي اعتناقهم للاسلام إلى تدهور حالة القبيلة العامة "[١٨٠].

والموقف من مقاطعة المسلمين المعروفة في شعب ابي طالب ، وفشل هذه المقاطعة يرجع بها (وات) – كذلك – إلى الاقتصاد والمصالح الاقتصادية فيقول " لا مغزى لغياب المشتركين الاخرين في حلف الفضول (عن التوقيع على وثيقة المقاطعة) ما عدا غياب عبد شمس ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد بان هذه القبيلة كانت تسعى لعقد صلات متينة مع مخزوم لخدمة مصالحها المشتركة فكان لابد من ان يوجه ذلك سياستها اكثر من المحالفات القديمة ، واذا جاز لنا تقديم ملاحظة حول الدوافع التي ادت إلى توقف المقاطعة فاننا نقول انهم ادركوا بمرور الزمن ان التحالف الكبير والمقاطعة يقويان مركز القبائل القوية التي كانت تحاول القيام بمراقبة التجارة المكية واخفاق مكانة سائر القبائل "[١٨١].

وتفاصيل الظروف التي انتهت إلى الغاء المقاطعة معروفة[١٨٢]. ونخوة الانسان لمجابهة الظلم وانقاذ المظلومين طبع مركوز في جبلة الانسان الا اذا جردناه عن قيمه كانسان وعددنا المجتمع البشري مجتمعا حشريا لا تحركه الا المصالح الصرفة. اما على مستوى الاخلاق العربية القديمة ذات الوجود التاريخي الثقيل ، فان المسألة تبدو اكثر وضوحا وعلى هذا الضوء يمكن ان نفهم ما جرى.

ومحمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه يضرب على وتر الدوافع الاقتصادية المصاحبة لكسب الانصار ، فيما يقتبسه (وات) عن (لامانس) الذي سبق وان رفض التسليم باستنتاجاته " كان الاشخاص الذين اتصل بهم محمد ، وهم عبد ياليل واخوته ينتمون إلى قبيلة عمر بن عمير المنتمية للاحلاف ، فكانوا بذلك من انصار قريش ، وربما راود محمدا الامل باستمالتهم اليه بالتلويح لهم بتحريرهم من سيطرة مخزوم المالية "[١٨٣].

---

(١٨٠) محمد في مكة ، ص١٦٣-١٦٤.

(١٨١) نفسه ، ص١٩٦.

(١٨٢) أنظر ابن هشام : تهذيب من ٨٩-٩١ ، الطبري : تاريخ ٣٤١/٢-٣٤٣ ، البلاذري انساب ، ٣٣٥/١-٣٣٦ ، ابن سعد : طبقات ١٤١/١/١، ابن الاثير : الكامل ٨٧/٢-٩٠.

(١٨٣) محمد في مكة ، ص٢٢١.

وفي مكان آخر يجعل (وات) " ظهور الاسلام ذا علاقة بالانتقال من اقتصاد بدوي إلى اقتصاد تجاري " ، واذ كان الرجل قد اكد في عبارة سابقة " ان قلاقل العصر كانت دينية مثل كل شيء " فانه ينتهي إلى طرح هذا السؤال " هل هناك تناقض ام ان النظريتين يمكن ان تلتقيا "؟[١٨٤]. وهو في مكان آخر يرى امكان ذلك[١٨٥].

ولا داعي للتأكيد ، للمرة العشرين ، على ان الاسلام يفرد مكانا واسعا للعوامل المادية والدوافع الاقتصادية ، وعلى ان بعض وقائع السيرة لا تفهم الا على ضوء دوافع كهذه، ولكن الاسلام كدين منزل من السماء ، وكدعوة اخيرة للبشرية ، أريد لها ان تواكب الوجود الانساني على اختلاف تقلباته واوضاعه. انما هو حركة اكثر شمولية واعمق اثرا من أي تأثير مادي أو اقتصادي ، وانه كدعوة انقلابية ، ضربت الاعراف والتقاليد والمعادلات اليومية السائدة ، اكثر استعصاء على التزمن والتحجيم الاقتصاديين وان القول بالعلاقة بين ظهوره وبين الانتقال من صيغة اقتصادية إلى صيغة اخرى ، تقطعه بين لحظة واخرى ، معطيات الاسلام العقيدية والتاريخية على السواء.

في مقابل هذا كله يطرح (وات) وجهات نظر اقرب إلى الموضوعية في حديثه عن العامل الاقتصادي فينفي اولوية هذا العامل حينا ، ويلتقي حينا آخر مع الرؤية الاسلامية التي تجعل (الدين) هو الاساس الحقيقي للمتغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وهو تحليل يختلف في اتجاهه تماما عن التحليل المادي للتاريخ ، يقول (وات) " نستطيع تحديد الموقف بقولنا انه ، ولو كان محمد على علم واسع بالامراض الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية في عصره وفي بلاده ، فانه كان يعد الناحية الدينية اساسية ولهذا حصر اهتمامه بهذه الناحية. وهذا ما حدّد أخلاق الامة الجديدة فقد اهتم المسلمون الاوائل بعقائدهم وشعائرهم الدينية اهتماما شديداً ، حتى لو ان رجلا يهتم خصوصا بالسياسة خلال الفترة المكية لما ارتاح إلى العيش بينهم، ولا سيما حين اشتد النضال مع المعارضين واصبحت نبوة محمد موضوع الخلاف الرئيس ، فقد اتجهت افكارهم اولا إلى الدين ، ولهذا دعي الناس إلى الاسلام على اساس ديني ، ولا يكاد يكون للافكار الواعية الاقتصادية أو السياسية أي دور في اعتناق الاسلام ، نقول هذا ونحن

---

(١٨٤) نفسه ، ص ١٣٤ وانظر كذلك ، ص ١٣٥.

(١٨٥) نفسه ، ص١٦٢.

نعتقد بان محمدا والمتنورين من اتباعه قد ادركوا الاهمية الاجتماعية والسياسية لرسالته ، وان مثل هذه الآراء كان لها أثر بالنسبة اليهم في ادارة شؤون المسلمين "[١٨٦].

وفي مكان آخر يؤكد (وات) هذه (الفكرة) التي تضع الامور في نصابها بعد ان اطاحت بها ذات اليمين وذات الشمال نظرية التفسير المادي التي عضت بنواجذها على صيغة الانتاج كقاعدة تحتية لكل المتغيرات على الاطلاق! " كانت المشكلة التي جابهها محمد – يقول وات – لها جوانب اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية غير ان رسالته كانت في الاساس دينية بحيث انها حاولت علاج الاسباب الدينية الكامنة لهذه المشكلة ، ولكنها انتهت لمعالجة الجوانب الاخرى ، لهذا اتخذت المعارضة اشكالا مختلفة "[١٨٧].

وثمة تأكيد ثالث لهذا المنظور الذي لا يغفل الدافع المادي ولكنه يضعه في مكانه تماما " ان الاسباب المادية لا تنفي الاسباب الدينية بل الاثنان متكاملان ، والقول الحق هو ان الافكار الدينية يجب ان تكون ضرورية لتجعل الناس يدركون الوضع العام الذي يعيشون فيه ، والاهداف التي يسعون وراءها ، وللدين في نظر التفكير الديني مظاهره السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، هذا هو الحال في الشرق الادنى ، وهو مع ذلك ظاهرة غريبة في نظر الغربيين ، ولكن يجب الا يعمينا ذلك عن ادراك ان الجانب الديني في الحركة التي تزعمها محمد كان دائما صحيحا وثيق الصلة بالجوانب الاخرى "[١٨٨].

وانطلاقا من هذه القدرة على (التحرر) من شد التقليد الغربي بصدد الدوافع الاقتصادية ، يطرح (وات) في مقدمة كتابه هذا السؤال " هل يعني هذا ان ظهور ديانة جديدة في الحجاز وانتشار العرب في فارس وسوريا وافريقيا الشمالية مرتبطان بتغير اقتصادي خطير ؟ وما يلبث ان يجيب عليه بقوله " هناك من يجيب بالاشارة إلى قحط صحراء الجزيرة العربية وان الجوع هو الذي دفع العرب على طرق الفتح ، لندع جانبا مؤقتا ، المسألة العامة عن التغير الاقتصادي ، ويكفي ان نشير إلى انه ليس هناك برهان وثيق على سوء الاحوال المناخية في الصحراء[١٨٩]. فلقد كانت الحياة فيها مقبولة. ونسمع عن صحابة محمد انهم – اثناء الفتوحات خارج الجزيرة – كانوا يعودون ادراجهم إلى حياة الصحراء التي يحبونها ، ونشعر من خلال ذلك ان البدو لم

---

(١٨٦) نفسه ، ص١٦٤-١٦٥.

(١٨٧) نفسه ، ص٢١٦.

(١٨٨) نفسه ، ص٢٣٩-٢٤٠.

(١٨٩) أنظر : ارنولد توينبي ، دراسة في التاريخ ٤٣٩/٣ ، ٤٤٥ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤.

يكونوا اسوأ حالا من الماضي ، بل كانوا افضل حالا بسبب ما يستفيدونه من ازدهار مكة المستمر. ولقد وجدت صناعات صغيرة في الحجاز ، ولا سيما لتلبية حاجات البدو والحضر، وان سمعنا عن سلع من الجلد فمصدرها الطائف ، ولكن هذه الصناعات ليست مهمة في كتابة سيرة محمد لنعدها عاملا فعالا "[١٩٠].

بينما نجد اتباع التفسير المادي للتاريخ يعضون بالنواجذ على اية اشارة من هذا النوع : صناعات جلدية ، تجمعات عمالية لعصر الكروم وتخميرها !! وما شابه ذلك لكي يقيموا عليها تحليلاتهم التي تنطوي في تشنجها المدرسي الاعمى حتى نبوة الانبياء وشعر الشعراء وحكمة الحكماء. وهم يصلون – من خلال ذلك – إلى استنتاجات تصل حد التمحل الذي يثير الاستغراب. و(وات) يرفض الانسياق وراء هذا التقليد مؤكدا نقائضه الحين تلو الحين ، برغم انه يمثل – بحد ذاته – تناقضا مع عدد من اطروحاته التي اشرنا اليها قبل قليل. " ان المستضعفين انتموا للاسلام متأثرين بقلقهم الخارجي والداخلي اكثر من تأثرهم بأي نفع اقتصادي أو سياسي. وليس غريبا ان بعض الاشخاص قد دفعهم إلى الاسلام النواحي السياسية والاقتصادية فيه ، ولا يبدو – مع ذلك – ان عددهم كان كبيرا "[١٩١].

وعلى أية حال فان (وات) الذي دعا في مقدمة كتابه إلى الاهتمام الواسع بالعامل المادي في تفسير الوقائع التاريخية ، لم يسمح لنفسه بان يذهب مع المقولة إلى نهاية المدى ، متخطيا كل حواجز المنطق والواقعة التاريخية وتعقيدات الدور البشري في التاريخ. وبذلك اثبت انه اكثر موضوعية من جلّ الذين اغراهم الدافع المنظور فوقعوا اسرى حشد من الاخطاء.

لكنه بصدد عوامل الشد الاخرى في مكونات العقل الغربي ، لم يستطع ان يحقق (التحرر) أو (التوازن) نفسه ، فوقع اكثر من مرة في دائرة (سوء الفهم) ان لم نقل في مظنة الاخطاء.

---

(١٩٠) محمد في مكة ، ص١٩-٢٠.

(١٩١) نفسه ، ص١٦٤.

الخاتمة

المحصلة النهائية التي يمكن ان نصل اليها من خلال التعامل مع دراسات المستشرقين، أياً كان موقعهم ، انه لا يمكن لهذه الدراسات – على الاطلاق – (وبالتأكيد العقلي ، غير الانفعالي ، على هذه العبارة الاخيرة) ان ترقى إلى مستوى السيرة فتكون قديرة على التعامل معها والتوغل في نسيجها ، وادراك بنيتها بعمق ، ورسم الصورة الموضوعية العادلة لها.

ذلك ان هناك اكثر من خلل في (منهج العمل) ، ولن يتمخض هذا الخلل الا عن حشود من نقاط سوء الفهم والاخطاء على مستوى الموضوع .. الاخطاء التي تنتشر كالبثور على جسد السيرة المترع صحة وتماسكا وعافية ، فتشوهه وتنثر على صفحاته البقع والشروخ.

نعم. ثمة فرق بين مستشرق وآخر. ونحن اذا قارنا (وات) بـ (لامانس) مثلا ، أو حتى بفلهاوزن ، وجدنا هوّة واسعة تفصل بين الرجلين .. يقترب اوّلهما ويقترب حتى ليبدو اشد اخلاصا لمقولات السيرة من ابناء المسلمين انفسهم. ويبعد ثانيهما ويبعد حتى ليبدو شتاما لعانا وليس باحثا جادا يستحق الاحترام.

ومع ذلك فهو فرق في الدرجة وليس في النوع. فها نحن نقف بعض الوقت عند كتاب (محمد في مكة) لاكثر المستشرقين حيادية كما اكد هو نفسه في مقدمته وكما قيل عنه ، ولنتذكر عبارات المستشرق البريطاني (غب) ونشير كذلك إلى عبارات المستشرق الفرنسي (مكسيم رودنسن) : " من النادر ان ترى عالما لا يهتم فقط بجمع مواد بحثه ، بل يطرح الاسئلة على نفسه ويجيب عليها بصورة علمية' يضاف إلى ذلك امانة علمية شديدة تصدر عن فكر لا حيلة له امام الحقيقة. هذا الانفتاح الفكري ، وتلك الامانة العلمية ، وهذه المهارة في الكشف عما هو اصيل وجوهري جعل من كتابه عن محمد حدثا تاريخيا في الدراسات عن نبيّ الاسلام "[١٩٢].

نقف امام هذا الكتاب فاذا بنا تقع على بعض جوانب الخلل في منهج العمل في حقل السيرة : نزعة نقدية مبالغ فيها تصل حد النفي الكيفي واثارة الشك حتى في بعض المسلمات ، تقابلها نزعة افتراضية تثبت بصيغ الجزم والتأكيد ما هو مشكوك بوقوعه اساسا. واسقاط للتأثيرات البيئية المعاصرة ، واعمال للمنطق الوضعي في واقعة تكاد تستعصي على مقولات البيئة وتعليلات العقل الخالص.

---

(١٩٢) من تعليق رودنسن الذي اعتمده الناشر على غلاف كتاب (محمد في المدينة).

ونستطيع ان نخلص من هذا كله : الى انه ليس بمقدور أي مستشرق على الاطلاق مهما كان من اتساع ثقافته ، واعتدال دوافعه ، وحياديته ، ونزوعه الموضوعي ، الا ان يطرح تحليلا للسيرة لابد ان يرتطم ، هنا أو هناك ، بوقائعها وبداهاتها ومسلماتها ، ويخالف بعضا من حقائقها الاساسية ، ويمارس – متعمدا أو غير متعمد – تزييفا لروحها وتمزيقا لنسيجها العام.

اهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الاثير : عز الدين الجزري (ت ٦٣٠هـ).

الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت-١٩٦٥-١٩٦٧م.

البلاذري : احمد بن يحيىبن جابر (ت ٢٧٩ هـ).

انساب الاشراف ، الجزء الاول ، تحقيق : محمد حميد الله ، معهد المخطوطات لجامعة الدول العربية ، دار المعارف ، القاهرة-١٩٥٩م.

ابن سعد : محمد (ت ٢٣٠ هـ).

كتاب الطبقات الكبير ، تحقيق ادور سخاو ورفاقه ، طبع مصورا عن طبعة ليدن- بريل-١٣٢٥م.

الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ).

تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة-(١٩٦١-١٩٦٢م).

ابن المبارك : زين الدين احمد الزبيدي (ت ٧٣٥هـ).

التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح للبخاري ، الطبعة الثانية ، دار الارشاد ، (بيروت-١٣٨٦هـ).

ابن هشام : ابو محمد عبد الملك (ت ٢١٨هـ).

تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، المؤسسة العربية الحديثة ، (القاهرة-١٩٦٤م).

الواقدي : محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ).

كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونس ، (مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦م).

أرنولد : سير توماس و.

الدعوة إلى الاسلام ، ترجمة : حسن ابراهيم حسن ورفاقه ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة–١٩٧١م).

بروكلمان : كارل.

تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : فارس والبعلبكي ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، (بيروت–١٩٦٨م).

البهي : د. محمد.

الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، الطبعة الخامسة ، دار الفكر ، بيروت.

خليل : عماد الدين.

التفسير الاسلامي للتاريخ ، دار العلم للملايين ، (بيروت–١٩٧٤م).

دراسة في السيرة ، الطبعة الثالثة عشر ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت–١٩٨١م).

في التاريخ الاسلامي : فصول في المنهج والتحليل ، المكتب الاسلامي ، (بيروت–١٩٨٠).

درمنغم : اميل.

حياة محمد ، ترجمة : عادل زعيتر ، الطبعة الثانية ، دار احياء الكتب العربية ، (القاهرة –١٩٤٩م).

دروزة : محمد عزة.

سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن الكريم ، الطبعة الثانية ، مطبعة عيسى البابي، (القاهرة–١٩٦٥م).

الدوري : د. عبد العزيز ورفاقه.

تفسير التاريخ ، مكتبة النهضة ، بغداد.

دوزي : رينهارت.

تاريخ مسلمي اسبانيا ، الجزء الاول ، ترجمة : د. حسن حبشي ، المؤسسة المصرية العامة ، دار المعارف ، (القاهرة–١٩٦٣م).

دينيه : اتيين (ناصر الدين الجزائري) وسليمان ابراهيم الجزائري : محمد رسول الله.

ترجمة : عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم ، الطبعة الثالثة ، الشركة العربية ، (القاهرة–١٩٥٩م).

العقيقي : نجيب.

المستشرقون ، دار المعارف ، (القاهرة–١٩٦٤م).

علي : د. جواد.

تاريخ العرب في الاسلام (السيرة النبوية) ، الجزء الاول ، (بغداد مطبعة الزعيم–١٩٦١م).

العلي : د. صالح احمد.

محاضرات في تاريخ العرب ، الجزء الاول ، الطبعة الثالثة ، (بغداد مطبعة الارشاد–١٩٦٤م).

عمر : فروخ ومصطفى الخالدي.

التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، الطبعة الرابعة ، المكتبة العصرية ، (بيروت–١٩٧٠م).

فايس : ليوبولد (محمد اسد).

الاسلام على مفترق الطرق ، الطبعة السادسة ، دار العلم للملايين ، (بيروت–١٩٦٥م).

فلهاوزن : بوليوس.

تـاريخ الدولـة العربيـة ، ترجمـة : محمد عبـد الهـادي ابـي ريـدة ، الطبعـة الثانيـة ، لجنـة التأليف والترجمة والنشر ، (القاهرة–١٩٦٨م).

وات : مونتغومري.

محمد في مكة ، تعريب شعبان بركات ، المكتبة العصرية ، بيروت.

محمد في المدينة (المترجم والناشر نفسه).

ولفنسون : اسرائيل.

تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، مطبعة الاعتماد ، (القاهرة– ١٩٢٧م).

Margolluth : The Eraly Development of Mohammedanism, (London-1914).

Mohammed and the Rise of Islam. (London 1905).

The Relations between Arabs and Israelits prior the Rise of Islam (London 1924).

Muir, Willam : The Caliphate, its Rise, Dicine and Fall, (London 1891).

The Incyclopeadia of Islam (London and Leyden 1913).